مقالات
في
علم المخطوطات

تأليف:

مصطفى الطوبي

الطبعة الأولى
يبراير 2000

رقم الإيداع القانوني : 56/2000

أبو حاتم المصري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بين يدي القارئ الكريم مجموعة من الأبحاث يحاول صاحبها أن يبرز من خلالها مواقف وآراء ثلة من علماء الفيلولوجيا المحدثين حول الكوديكولوجيا أو علم المخطوطات بمفهومه الحديث. وقبل الحديث عن هذه الأبحاث وإبراز جهود كاتبها في تحسيس عامة المثقفين بأهمية هذا العلم رأيت من المفيد أن أقف وقفة قصيرة عند اهتمام الطالب الباحث العربي بالمخطوط وعلومه. يبدو من خلال ما نقرأ من بحوث ودراسات ومقالات أن معظم طلبتنا يبحثون في كل ما هو حديث ويعدلون عن كل ما هو قديم لا لأنه قديم، ولكن لأنه يستوجب الجهد والصبر والمعاناة واستشارة القواميس والدواوين والفهرسات وكتب التراجم وغيرها. إن كثيرا من خريجي الجامعات ومدارس المكتبات غير قادرين على قراءة مخطوط قراءة سليمة فضلا عن تمييز خطوطه أو الاهتمام بتركيبه وصناعته أو دراسته دراسة كوديكولوجية حديثة. إني أهيب من خلال هذا التقديم بمن تحملوا مسؤولية الثقافة في عالمنا العربي أن يعيدوا النظر في مناهج التعليم

الجامعي خصوصا ذلكم المتعلق بالتراث وأن يعملوا على تكوين جيل من الشباب باستطاعته مواصلة أعمال جيل من الرواد كثير منه قد قضى نحبه وما بقي -على قلته- ينتظر وهو في حالة عجز وانصراف إلى مقاومة الأمراض ونائبات الحياة.

إن الأبحاث المنشورة في هذا الكتيب ربما قد تكون سابقة لأوانها إذا قسناها بالتكوين الذي يتلقاه الطالب العربي وإلا فما الفائدة التي يمكن أن يجنيها الطالب من قراءة هذه النظريات العلمية المتعلقة بالمخطوط وهو لم يسبق له أن رأى مخطوطا فضلا عن قراءته والاهتمام به؟. حاولت خلال الخمسة وعشرين سنة التي قضيتها في تدريس مصادر التراث والمخطوطات في الجامعة أن أرسخ هذا التكوين في عقول طلبتنا وذلك بدعوتهم إلى الاختلاف إلى المكتبات ومراكز المخطوطات لتأكيد ما يقرأونه وتثبيت ما يتلقونه من معارف وعلوم وتملك الأدوات البيليوغرافية للتمكن من الوقوف على مصادر التراث القديم ومعرفة كيفية التعامل معه.

وإذا كانت الأغلبية قد عزفت عن هذا التوجيه فإن البعض الآخر -رغبة منه في التكوين العربي المتين- قد أقدم على مخاطر عالم المخطوطات فأقبل على الاهتمام بهذا التراث واقتحم الميدان متسلحا بالصبر غير مكترث بما سيواجهه من مزالق وعقبات. ومن بين هؤلاء الطلبة الذين على الرغم من تشبعهم بمعطيات الثقافة الحديثة والذين بقوا متشبثين بالتراث القديم

مصطفى الطوبي الذي منذ أن عرفته طالبا في الجامعة وهو يهتم بهذا التراث خصوصا بما كتبته عن علم المخطوطات الذي يعتبر كتابي (دراسات في علم المخطوطات) أول كتاب عربي يتناول موضوع الكوديكولوجيا بفهم وتتبع كما شهد بذلك الدكتور أيمن فؤاد سيد الذي وضع آخر كتاب في هذا العلم بعنوان: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات[1]. وقد تمخضت علاقتي بهذا الباحث عن تحمل مسؤولية الإشراف على بحثه الجامعي للسلك الثالث والذي كان عبارة عن ترجمة إلى اللغة العربية لكتاب «جاك لومير»: مدخل إلى علم المخطوطات (Introduction à la codicologie):1989. وكانت أول رسالة في علم المخطوطات تقدم في الجامعة العربية. وإذا كان هذا الكتاب يعالج مشاكل ومواضيع المخطوط الغربي فإن الباحث قد استفاد من الآليات والأدوات العلمية والتقنية التي استعملها العالم البلجيكي في تناوله لعلم المخطوطات.

إن هذه الأبحاث خلاصة لمجموعة من الجهود بذلها مصطفى الطوبي في تتبعه للدراسات التي وضعت حول هذا العلم في العقدين الأخيرين وهو علم بلغ شأوا بعيدا في أوربا ولكنه مازال يحبو في عالمنا العربي.

---

(1) الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات: في جزءين 1997. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. المقدمة ص: 7.

إن النهوض بالكوديكولوجيا العربية يحتاج إلى تضافر جهود كل من المختصين والخبراء -على قلتهم- ومراكز المخطوطات والتوثيق وعلى رأسها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة الذي ندعوه في كل الندوات التي ينظمها سنويا إلى تجاوز جمع المخطوطات وتصويرها وفهرستها إلى القيام والاهتمام بعلم المخطوطات الحديث وذلك لدراسة هذا التراث الضخم من المخطوطات العربية والإسلامية دراسة كوديكولوجية.

الدكتور أحمد شوقي بنبين
مدير الخزانة الملكية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

«إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المرسل هدى ورحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين».

وبعد: فهذا المؤلف هو في أصله مجموعة مقالات كتبتها طيلة سنوات البحث، ونشرتها تباعا، إلا أنني كنت أعلم أن القراء سيكونون محدودين بإزائها نظرا لجدة العلم، وحداثته في الوطن العربي بله في المغرب، ونظرا أيضا للحيز الضيق الذي أصبحت تشغله ثقافة القراءة في إطار هذا الفيض الإعلامي الجارف.. ومع ذلك أبيت إلا أن أجمع هاته الإسهامات في مجموع خاص. ويعود هذا الإلحاح إلى أنني أعلم جيدا أن هذا العلم ليس تراكما مستقلا على الرغم من كونه كذلك ابستيمولوجيا.. إنه إجرائي بالنسبة لمجموعة من الثقافات المتداولة في جامعاتنا المغربية والعربية أيضا،

والمشتغلة في جانب كبير منها على إخراج التراث وتحقيقه..

لقد اعتدنا أن نرى في المخطوطة حصيلة معرفية، دينية، أو لغوية، أو علمية.. ولم نكن قط نهتم بها على أساس أنها قطعة أثرية نفيسة قابلة لأن تدرس دراسة حفرية جادة...إن هاته المعطيات المادية التي يقدمها لنا وعاء المعرفة هي التي من شأنها أن تساعدنا على التأريخ والموضعة، وتجلية خصائص حضارة بائدة، بل وتساعدنا أيضا على اكتشاف وقائع التزوير والتحريف والدس.. وقد آن الآوان لأن نكف عن هاته الطريقة المعملية الزهيدة في إخراج نصوص مدسوسة، ومحرفة، ومختلقة وأن نراجع نظرتنا التقليدية إلى التراث على أساس أنه فرض كفاية في أوعية دون أخرى بناء على السلامة، والكمال والوضوح، وابتعادا عن الخرم والغموض.. إننا فعلا خاطئون.. فكثيرة هي المخطوطات التي ترى النور دون أن يكون محققوها يعرفون أبسط شروط التحقيق العلمي، ناهيك عن جهلهم التام بعلم المخطوطات، وفقه اللغة، ونقد النصوص، وتاريخها..

وعلم المخطوطات هو ضرب من الحفر عن المكونات المادية للمخطوط، وأعني بالمادية تلك المكونات التي لاتتعالق البتة مع محتوى المخطوط. بمعنى أن العلم هو حفر عن أصالة المخطوط من حيث الشكل أو الوعاء.. والحفر مؤطر بما هو تقني (صناعة مواد الكتابة، والطي وصناعة الملازم، والترتيب، وتركيب الصفحات، والتجليد، إلخ...) وبما هو نسقي أيضا (النساخة التي تستوعب الترقيم، والوقف، وبداية المخطوط، ونهايته، وحرود المتن، والتشطيب، والحك، والكشط، والمحو، ونظام الإحالات، إلخ...).

إنني في هاته المقالات، التي هي في أصلها وقوف على تصورات خاصة لعينة من العلماء في حقل علم المخطوطات، لن أكون محايدا متفرجا على هاته المشاهد من وراء السياج إلا في حالات نادرة... فأنا سأنزع إلى تذييل هاته الإسهامات بتقويم مقتضب. ولعل أهم إشكالية ستحركني في تقويماتي هي مسألة استقلالية علم المخطوطات، وعلاقته بالمعارف الأخرى..

المجموع إذن هو قراءة لأبحاث أجنبية وعربية، وهو أيضا إسهامات في روافد متعالقة مع علم المخطوطات من قريب أو بعيد..

إنني وشعورا مني بالمكانة التي تتبوأها الفيلولوجيا ونقد النصوص قد قدمت للقارئ الكريم أهم كتاب في هذا المجال، ويتعلق الأمر بكتاب «المخطوطات» Les manuscrits «لألفونس دان».

وفي إطار المحاولات الرامية إلى التركيب بسطت مجموعة من الإسهامات الجادة من مثل أطروحة «جاك لومير»، وأطروحة «ليون جلسان»، وأطروحة أحمد شوقي بنبين... ومن زاوية أخرى تتبعت مجموعة من الاقتراحات التي كان لدي منها موقف منتقد من مثل ما تقدم به «كارلا بوزولو» و «أوزيوأورنطو»، وما تقدم به «ألبيرت دورلز». وعلاوة على حديثي عن بعض حوامل المعرفة من خلال مقالين خصصتهما لمادتي البردي والرق، فإنني لم أنس أن علم المخطوطات هو علم إجرائي، وذلك من خلال المقال الذي خصصته لعلاقة هذا العلم بالتحقيق العلمي، متوخيا، فيه رصد هاته الإجرائية من منطلق أن المخطوطة وعاء مادي متكامل في جميع مكوناته التقنية... ولايمكننا أن نلجأ إلى التجزيء في دراسة هاته الرزمة من

المعطيات المادية..

إن الرابط بين هاته الأبحاث هو كوني قد انطلقت من أرضية واحدة في قراءتها هي المفهوم الخاص الذي مازلت في حاجة إلى أن أغنيه تراكميا هدفا في أن تصبح لنا المشروعية في الحديث عن قوانين كوديكولوجية تفسر خصائص المخطوطات العربية.. إن هذا الجهد الفردي، والذي توخيت من ورائه إظهار نماذج فقط في هذا العلم الحديث لن يزيح كل الهم الذي يجب أن تشعر به الجامعة الآن، وهي الوصية على دراسة التراث وإخراجه. فعسى أن يتنبه المسؤولون إلى هاته الثغرة المشينة لصناعة العلم، وذلك هدفا في أن يصبح الاهتمام بمادية المخطوط جزءا أساسا من ثقافة الوصي على إخراجه.

مطلب
بحث في ما يحتاجه المحقق من معرفة كوديكولوجية تساعده على التحقيق

وأود في النهاية أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الأوفر إلى أستاذي الكريم الدكتور أحمد شوقي بنبين الذي اعتبر رغبتي في محو الجهل علما، وأعطاني من وقته الثمين لحظات للمتابعة، والتقويم، والتصحيح. ورحب بي في ميدان ريادته. وأملي أن أرى أفواج الباحثين جادفة ملحة على تعمير هاته الجزيرة العلمية الفارغة... والله من وراء القصد...

مصطفى الطوبي

الرباط 16 رمضان الأبرك 1420 هـ

الموافق 25 دجنبر 1999 م.

«ألفونس دان» والإرهاصات الأولى لعلم المخطوطات من خلال كتابه «المخطوطات»

يعد كتاب «المخطوطات» لمؤلفه الفيلولوجي الكبير «ألفونس دان» A.Dain من مصادر علم المخطوطات، فقيمة هذا الكتاب تتجلى في كونه وضع إشكالية المفهوم موضع البحث كما كان اصطخب بآراء نيرة هدفت إلى رصد التعالق بين هذا الحقل المعرفي وحقول أخرى قريبة من الكوديكولوجيا في معطياتها النظرية والإجرائية... فليس من بد للباحثين في حقل الكوديكولوجيا من أن يشيروا إليه في هذا الباب أو ذاك... نعم قد يختلفون معه، ولكن آراءه تظل رئيسة...ومنها صح لهم أن يبحثوا عن رؤى جديدة في تصور علم المخطوطات... وقد فضل «ألفونس دان» الحديث عن المخطوطات في علاقتها بمجموعة من الأبحاث الهامةفي الدرس الفيلولوجي؛ ومن ذلك: المخطوطات ومسألة النساخة، والمخطوطات وإشكالية الباليوغرافيا والكوديكولوجيا، والمخطوطات ومشكلة تاريخ النصوص، والمخطوطات ومسألة الطبع. وهاته الخطوط العريضة هي في جوهرها جماع ما ورد أصلا

في كتاب «المخطوطات».

المخطوطات ومسألة النساخة

يذهب «ألفونس دان» إلى أن هناك فرقا كبيرا بين النسخة الأصلية، والنسخ القديمة المعتمدة. ومن ذلك أن العالم «كينوفون» الذي عاش أصلا في القرن الرابع قبل الميلاد، لانتعرف عليه إلا بواسطة المخطوطات التي ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي.. ويجب أن نعلم أن مسألة الخط هي مسألة جوهرية إذا وضعنا في الاعتبار أن هناك مخطوطات تغيرت خطوطها ثلاث مرات أو أربع.. والأنظار إنما تتوجه إلى الناسخ ومدى إتقانه لمهنته. فالناسخ المجيد ليس هو ذاك الذي يقوم بتصحيح النسخ وتقويمها كما قد نتوهم وإنما هو الذي يعيد إنتاج أخطاء المخطوطات التي يشتغل عليها، ويقلدها أحسن تقليد. ويعطي «ألفونس دان» مهمة إعجام النصوص، وتصحيحها، والتعليق عليها للفيلولوجي، لأن هذا الأخير يتوفر على معرفة نقدية يؤول إليها كلما عنت الحاجة إلى ذلك.. أما فيما يخص كيفية النساخة فيدرأ «ألفونس دان» مسألة الإملاء بوصفها ركنا جوهريا في كتابة النصوص (... ولكنني أمعن في الاعتقاد أن حالة الإملاء لم تكن البتة إلا حالة خاصة)[1]. والناسخ يقرأ ما يكتبه... يمسك الورق بيده اليسرى ولايكتب على قمطر أو مائدة ولكن على ركبتيه فوق لوحة تشكل له مطية الكتابة والمائدة لم تكن

(1) Les manuscrits. A. Dain, page: 20.

تستعمل إلا للأكل... ولم يستعمل القمطر إلا في النصف الثاني من العصور الوسطى. أما النموذج المقترح للكتابة فكان يعينه رئيس المحترف أو دار النساخة. ويبين «ألفونس دان» أن عملية الكتابة تأتي بعد عملية التسطير، وذلك حينما نتخيل أن الناسخ ينثني على اثنين وفي يده أوراق النساخة، وقد جهزت بالخطوط؛ الخطوط الأفقية، وخطوط الهوامش، وأضعاف الهوامش... أما ملء هاته الخطوط بالكتابة فقد نعثر على تنويعات كتابية لناسخ واحد، وذلك راجع إلى حالات النساخ النفسية، وإلى اختلاف أعمارهم (.. أعرف مجموعة من المخطوطات التي نعزوها إلى أياد متعددة، في حين أن الأمر يتعلق فقط بناسخ موغل في الانفعال)[1].

وبعد عملية النساخة يضيف الناسخ، إذا كان متقنا لعمله، بعض المعلومات عن التاريخ، وأحوال النساخة، ويدمج اسمه في نهاية العمل، كما أنه يرضخ هذا النص للمقابلة، والترقيم، وأشياء أخرى. ومن هاته الأمور مسألة الزخرفة؛ وتندرج ضمنها العناوين الملونة، من مثل عناوين الأعمال الكاملة، والفصول، والحروف التي تبدأ بها الكتابة والتي غالبا ما تكون مكبرة ومكتوبة بلون مغاير. ويحدث في بعض الأحيان ألا يتوفر في العمل المنسوخ شرط العناوين الملونة، وبهذا ينتقل العمل إلى اللاحقين بدون عنوان مثبت. وبعد أن ينتهي كل شيء تأتي مرحلة المراجعة. والمراجعة يقوم بها رئيس المحترف سطرا بعد سطر، ويصحح الأخطاء الواردة... وغالبا ما يقوم بهذا العمل في الليل حينما يركن الناسخون إلى النوم. ثم يزين العمل

(1) Ibid, page 31

ويجلده (وينجز تجليد الكتب القديمة من ألواح الخشب مغطاة بالجلد أوالقماش وتكتمل فيها الزخرفة بالأقفال المزخرفة والرزز المزينة بالفصوص)[1]. وفي غالب الأحيان تفتقد الكتب إلى تجليدها الأول الذي يعد أثمن علامة على أصلها، فالغلاف يرمم مرة بعد أخرى، أو يستبدل بغلاف آخر من نوع حديث.

المخطوطات ومسألة الباليوغرافيا والكوديكولوجيا

يعرف «ألفونس دان» الباليوغرافيا بكونها علم الخطوط القديمة وأسس هاته الخطوط، وهي تمتد في القديم إلى ما لانهاية، وتستوعب حديثا حتى الخطوط المطبوعة. ويظهر الباحث أنه لايهتم بالكتابات المسمارية، والهيروغليفية، والمقطعية، والمائلة، ذلك أن هذا ميدان يهتم به أصلا من يشتغل على آثار الشرق القديم. أما عن استعمال هاته الكلمة فقد أحدثها «مونتوفوكو» بالفرنسية Paléographie وقد قطعت الباليوغرافيا الإغريقية أشواطا هامة، وذلك في مقابل الباليوغرافيا الشرقية. ورغم هذا فالباحث ينشد ضرورة القيام بمجموعة من المهام المتعالقة مع هذا العلم من مثل الكشف عن مراكز النسخ الإغريقية إذ لانعرف مواطن الكتب القديمة. وللوصول إلى ذلك يتوجب القيام بإحصاء لجميع المخطوطات التي نعرف أماكنها الأصلية انطلاقا من توقيعات النساخ وعلامة الفيليغران. كما

---

(1) Ibid, page: 39.

يتوجب علينا أن نقوم بتاريخ الكتابات الإغريقية، وذلك بواسطة فحص الورق والرق إلخ... ويميز «ألفونس دان» في هذا الإطار بين الفيلولوجي الذي تحدث عن بعض مهامه في دراسة المخطوطات، وعالم المستندات القديمة الذي يدرس المشرعات.

الكوديكولوجيا

ويعرفها بأنها العلم الذي موضوعه دراسة المخطوطات في ذاتها، وليس دراسة خطوطها. والكلمة حسب المؤلف جديدة في الفرنسية، إلا أن علم المخطوطات ليس كذلك. ويعدد هذا العالم أهم مهام هذا العلم من مثل تاريخ المخطوطات، وتاريخ مجموعات المخطوطات، والبحث عن المواقع الحديثة للمخطوطات، ومشاكل الفهرسة، وسجلات الفهارس، وتجارة المخطوطات، واستعمالها إلخ..

في حين أن ما يتعلق بالباليوغرافيا إنما هو دراسة الخط، ومادة الكتابة، وصناعة الكتاب، واستعمالاته، وفحص شكله.. والباليوغرافيا لها ميدان أوسع من ميدان الكتاب المخطوط. فهناك باليوغرافيا السجلات، وباليوغرافيا الوثائق البردية، وباليوغرافيا قطع الربائد إلخ. ويشير الباحث أيضا إلى أن مجهودات الكوديكولوجيين بخصوص المخطوطات الشرقية مازالت بعد لم تتطور، أما في العالم الإغريقي فالكوديكولوجيا متقدمة نظرا لمحدودية عدد المخطوطات 55.000 مخطوط، وفيما يخص المخطوطات

هذه تحتوي عليها مكتبة واحدة من مكتبات المسلمين

اللاتينية، ونظرا لارتفاع عددها، أزيد من 300.000 مخطوط فلازالت في حاجة إلى عدد من الأعمال الهامة التي تبقى ضرورية لكل الكنوز المخطوطة الموجودة في العالم ومن ذلك:

1- إحصاء المخطوطات: ويعد أهم عمل يقوم به عالم المخطوطات، والأعمال المتعلقة بفهرسة المخطوطات متقدمة سواء تعلق الأمر بالإغريقية أو باللاتينية أو بلغات الشرق. ومع ذلك مازالت تشكو هاته المهمة من ثغرات كثيرة. ويجب فوق هذا أن نضع إحصاءات المخطوطات الفريدة، والمخطوطات الأصلية، والمخطوطات الملونة إلخ...

2- فهارس الفهارس: وهي مرحلة تأتي بعد مرحلة إحصاء المخطوطات أو إنهاء السجلات العامة المتعلقة بنوع من المخطوطات.. والعمل إنما ينشد فحص فهارس كل المكتبات.

3- ملخص المخطوطات: ويمثل هذا العمل الشكل الأنسب لأوصاف الفهارس. ولكننا يمكن أن نتصور ملخصا أكثر تطورا.

4- فهارس المخطوطات المؤرخة: (للتأريخ المضبوط للمخطوطات فائدة مزدوجة، فهو يمكن من تقديم ركائز قوية لتاريخ النصوص، وقد يعيد إلى الأماكن مجهودات الدراسات الباليوغرافية الحقة)[1]. ومن هنا تأتي أهمية فهارس المخطوطات المؤرخة في كل اللغات. وفي الواقع العملي فإن المخطوطات لاتؤرخ بشكل واضح إلا بالتوقيع الصحيح للنساخ وهذا مانصادفه في المخطوطات الوسيطية، ومخطوطات عصر النهضة. وعندما يعز

(1) Ibid, page: 85.

علينا التماس المخطوطات المؤرخة بدقة، نتحدث عن المخطوطات المؤرخة بشكل تقريبي (يمكن أن توصلنا المعلومات غير المباشرة، والإشارات التاريخية، وما شابه ذلك من تفاصيل متعلقة بالمخطوطات، إلى تأريخها بشكل تقريبي)[1].

5- فهرس النساخ: وضعت لائحة عند الإغريق تقدمت فيها معلومات كافية عن كل ناسخ، ويعود هذا العمل إلى 1909م. أما خارج العالم الإغريقي فلا توجد إلا فهارس عامة وغير مضبوطة. ومن هنا يدعو «ألفونس دان» إلى ضرورة وضع مونوغرافيات عن أهم النساخ.

6- فهارس المجموعات والمجمعين: من بين الأعمال الهامة التي تعنى بها الكوديكولوجيا توضيح تاريخ المخطوطات؛ من تملك هذا المجلد، ومن هم مالكوه المتواليون، وأية مجموعة ينتمي إليها هذا الكتاب؟. إن المعلومات عن المجموعات والمجمعين قليلة بخصوص العصور البعيدة. وهكذا يفترض في كل موجز أن يتوفر على ما يلي: تاريخ المجمعين، أو تاريخ تشكيل المجموعات، والإشارة إلى مختلف محتويات المجموعات الكبيرة، وأصل الكتب أو المجموعات، وتفرق هاته الكتب بالنسبة للمجموعات القديمة، والإشارة إلى الفهارس القديمة علما أن هاته الفهارس يمكن أن تشير إلى مجمعي المخطوطات الإغريقية واللاتينية وحتى المخطوطات الشرقية، إذا كان ذلك ممكنا. كما يدعو الباحث إلى ضرورة وصف الخزانات الزائلة بدقة ليكون إعادة تكوينها عملا يسيرا كما ينشد جردا لإعادة التجليد، وملصقات

---

(1) Ibid, page: 86.

الطوابع، وشعارات النبالة، وخوارج الكتب إلخ...

7- فهارس إعادة إنتاج المخطوطات (الطروس): وهو آخر عمل يجب أن يقوم به الكوديكولوجي. وهناك فائدة في التفريق بين إعادة كتابة الصفحات المكتوبة من المخطوطات، وتلك الشاغرة بالألوان والتزيينات.. إنهما مادتان تعنيان ضربين من الأتباع؛ الفيلولوجيين، ومؤرخي الفن وهواته. ومن كل هذا يتبين لنا تصور «ألفونس دان» للكوديكولوجيا. فهي في نهاية المطاف معنى من معاني الفيلولوجيا ويصرح بذلك في قوله؛ (... لا معنى للكوديكولوجيا ولا نجاعة لها إلا إذا كانت تابعة للفيلولوجيا)[1].

المخطوطات ومسألة تاريخ النصوص

يهتم مؤرخو النصوص بالدرجة الأولى بالكشف عن الكيفية التي وصلتنا بها نصوص العهد القديم، وهو مجال جديد يرجع إلى عصر «لاخمان» ومنافسيه.

ويؤكد «ألفونس دان» أن هناك فرقا بين تاريخ النصوص وعلم المخطوطات. فتاريخ النصوص (يميل إلى أن يلتحم بتاريخ الفكر، وتاريخ الأذواق، والنوادر، وتاريخ التدريس الجامعي، وتاريخ الكتابة، وتاريخ الخزانات، أو بكلمة واحدة يميل إلى أن يلتحم بالتاريخ)[2]. والذي يهتم

(1) Ibid, page: 92.

(2) Ibid, page: 97.

بتاريخ النصوص عليه قبل كل شيء أن يعين هاته النصوص التي هي هدفنا في القراءة والنساخة والتحقيق والشرح، وأن يعين مكانها وزمانها، وبعد ذلك عليه أن يحدد هوية مؤلفيها، والمصادر التي اعتمدوا عليها لتأليف نصوصهم. ومن مشاكل تاريخ النصوص هناك النقحرة (الانتقال من خط إلى آخر)، ومن ذلك أن النصوص القديمة في العالم الإغريقي التي كانت مكتوبة أصلا بخط روماني "Oncial" تم نسخها في فترات متأخرة بكتابة ذات حروف صغيرة "Miniscule" ومن مسائلها أيضا قضية النسخة الأصل Autographe والتي تعني النموذج المخطوط الذي يعود إلى المؤلف.

ويذهب الكاتب إلى أننا لن نستطيع أن نعثر على النسخة الأصل في المأثور الإغريقي واللاتيني. ومن هنا دأب على الحديث عما أسماه بالنسخة الأم Archétype ، والنسخة الأم يمكن أن تكون في كل العصور. وفي العالم اللاتيني والإغريقي يمكن أن نلتمسها ما بين 100 م و 450 م.

وقبل هذا التاريخ نتحدث عما قبل النسخة الأم، وفي بعض الأحيان فإن الباحث لايستطيع أن يصل إلى النسخة الأم، فيكتفي بأقرب نسخة مشتركة لمأثور المخطوطات. وإذا أردنا أن نتتبع المعتمد من المخطوطات صح أن نتحدث عما أسماه الباحث بالمخطوطات القيمة Les prototypes، فيما أننا لانتوفر على مخطوطات أصلية أو نسخ أمهات. فالتاريخ أبقى على هاته المخطوطات المنقحرة، وهي قليلة ومتآكلة. كما أنها هي التي تشكل أساس الدراسة. وهاته المخطوطات إذا انقرضت في ذاتها ولم تتبق إلا

المخطوطات المنسوخة منها يمكن أن نقوم بإعادة بنائها فـ المعطيات المتبقية. والمخطوطات القيمة إما أنها مخطوطات فريده، . الفريد لتناقل النصوص. ويلاحظ المؤلف ظاهرة ضياع المخطوطات في العصر الإغريقي أكثر منه في اللاتيني.

المخطوطات ومسألة تحقيق النصوص

حقق النص أو قرأه قراءة نقدية أي حاول العودة إلى أصله الذي تفصلنا عنه مجموعة وسائط. ومن هاته الوسائط ما ضاع في القديم أو بقيت منه فقط قطع متناثرة. ومنها ما يشكل نموذجا متطورا لتاريخ النصوص. أما عمل المحقق فهو معرفة هاته المراحل الوسيطية والوصول إلى الأشكال الضائعة عن طريق النسخ الحاضرة.

وفي القرن الثامن عشر لم يهتم «بانتلي» وأتباعه في أعمالهم النقدية بتاريخ النصوص، بقدر ما اهتموا بالمكونات الداخلية للنصوص. إنهم اهتموا بتفحص اللغة والتركيب والوزن والأسلوب. أي أنهم سعوا إلى أن يجعلوا المؤلف يصحح نفسه بنفسه. ولم يتم الاهتمام بخارجيات النصوص إلا في نهاية القرن الثامن عشر، حيث ظهر النقد التاريخي مع «ويخلمان» وازدهرت الأبحاث الفيلولوجية مع ألمانيين آخرين مثل «كودوفروا هيرمان»

و«بويخه» و «ولف» إلخ.. أما «لاخمان»[1] فهو الأول الذي حاول أن يعيد بناء النصوص الضائعة، وذلك حسب موهبته الممتازة، ومعارفه الباليوغرافية والنقدية. وخلفه فيلولوجيون آخرون ساروا على دربه من مثل «زامبت»، و«ريتشل»، و «سوپ» الذي وضع مبدأ التسلسل النسبي للمخطوطات.. ويمكن القول إنه مع هؤلاء العلماء ظهر العلم الحقيقي للمخطوطات وتاريخ النصوص.

(1) أكبر فيلولوجي في القرن 19.

علم المخطوطات عند "جاك لومير":

محاولة موفقة في التركيب

أظهر الباحث «جاك لومير» أن علم المخطوطات قد عرف دلالات متعددة عبر الزمن. فموضوع هذا العلم هو هذا الشيء المادي الذي يسمى «كوديكس» Codex. إن علم المخطوطات يجب أن يهتم قبل كل شيء بدراسة مختلف مظاهر الصناعة المادية الأولية «للكوديكس». وبعد ذلك تعتبر الشروحات، والإصلاحات، والإزالات، والإضافات التي يحدثها النساخ أو القراء، والتهميشات التي يضعها المالكون لنسخ المخطوط ذات أهمية بالغة بالنسبة لهذا العلم. ويوجز مشروع علم المخطوطات في كونه يجيب على أسئلة محددة تلك هي كيف ومتى وأين تم صنع هذا الكتاب؟ لأية غاية تم إنجازه؟ ومن هو متلقيه؟.

إن علم المخطوطات إذن حسب هذا العالم هو فضاء يهتم بإظهار وشرح شروط الانتاج الأولي لكتاب مصنوع بطريقة تقليدية.

وفيما يخص علاقة هذا العلم بالتاريخ يذهب «جاك لومير» إلى أن أثرية الكتاب -علم المخطوطات- تلاحظ الوقائع المادية، وتيسر فحص الإشارات المخطوطية التي لاتظهر غالبا للباحثين غير المتمرسين بما فيه الكفاية.. أما التاريخ فيأتي بعد ذلك لاقتراح تفسير لهاته الوقائع وهاته

الإشارات... وهكذا سيكون عالم المخطوطات مدفوعا في أغلب الأحيان إلى أن يتحول إلى مؤرخ، وذلك توخيا لإشباع رغبته في تفسير الظواهر التي يعاينها أثناء لحظات بحثه، وأيضا لكي يدعم إمكانية بناء النظرية.. خاصة وأن المهمة الأساس المنوطة بعالم المخطوطات هي محاولة فهم طريقة صناعة المخطوط عند الصناع القدامى.

وعلاوة على إسهام علم المخطوطات بمعارف دقيقة متعلقة بتقنيات المخطوط الوسيطي فهو يزودنا بمعلومات متعلقة بمصير المؤلف، وهوية طالبه، وملاكه المتتابعين، وطبيعة المجموعات التي نقلته إلينا.. وبهذا المنظور سيكون علم المخطوطات علما مساعدا للتاريخ. لكنه يشكل -شأن الباليوغرافيا- علما مستقلا هو المنطلق لكل بحث فيلولوجي.

مواد الكتابة

يذهب «جاك لومير» إلى أن الرق كان هو المادة المهيمنة إلى حدود القرن الثالث عشر الميلادي في صناعة الكتاب. وبعد ذلك بقيت هاته المادة مستعملة لدى كبار الأسياد والأمراء. وكان الرق يؤخذ من جلود الحيوانات، من مثل العجل، والخروف، والماعز، وحتى من جلد الحمار. ويعتبر القضيم أحسن من الرق وأغلى منه. وفي معاينة مخطوط مصنوع وتام يصعب علينا البحث عن أصل مادته الرقية، اعتبارا لما رضخ له من أساليب الترقية

والتليين، إلا أن الجهة السفلى في الرق تكون أكثر وضوحا وبياضا من الجهة العليا. أما مادة الورق فهي مادة مصنعة ناتجة في عمومها عن صناعة الانسان، وقد ظهر في الغرب أثناء العصر الوسيط إذ اخترعه الصينيون، وأدخله العرب إلى أوربا.

هام

وكان الصانع يصنع من هاته المواد ملازم. والملزمة في علم المخطوطات مجموعة من الصحائف التي يخيطها المجلد بخيط رابط مشتركة في آن. ويختلف الإسم الذي تحمله الملزمة بحسب عدد الصحائف المتشكلة منها؛ فنسمي الملزمة المكونة من صحيفتين مزدوجتين ثنائية، والملزمة المكونة من ثلاث صحائف مزدوجة ثلاثية، والملزمة المكونة من أربع صحائف مزدوجة رباعية، والملزمة المكونة من خمس صحائف مزدوجة خماسية... وهناك السداسية، والسباعية، والثمانية، ولا اسم فوق هذا. وتسمى صحيفة واحدة أحادية. ويمكن أن يوجد داخل نفس الكتاب أشكال متنوعة من الملازم. إننا يمكن أن نلاحظ بعض الاستثناءات في الملازم، وهي تعود إلى حادثة لاحقة عن هاته الصناعة أو شيء من هذا القبيل. إن المخطوط المكون من مائة وستين صحيفة قد نتج عن الدمج الرتيب لثمانين صحيفة مزدوجة، من خلال عشرين رباعية متجانسة، وقس على ذلك في جميع أنماط المخطوطات. وفيما يخص أنماط ترتيب الملازم، فقد استعمل الصناع الوسيطيون العديد من أنماط الضبط والترتيب من مثل التعقيبة، وشارة الملزمة، والصلائب والدوائر، والخطوط، والنجوم، وأرفقت التعقيبة بالخطوط وبالدوائر الصغيرة وبالأعداد..

تقنيات صناعة المخطوط

تحدث «جاك لومير» ضمن هذا الباب عن مجموعة من التقنيات التي تعد ضرورية لتتميم صناعة المخطوط من مثل الطي، والترتيب، والخزم، والنساخة...

إن الطي يعد لبنة جوهرية في تشكيل الملزمة وهو ضروب؛ فهناك الطي بقطع الربع والكيفية التي يرجح أنها الأكثر ترددا في طي ورقة بقطع الربع تطابق الصيغة 32/41، ناهيك على أن هناك صيغا أخرى من مثل الصيغة A^2 وتساوي 36/45+72/81.

والصيغة C^2 وتساوي 54/81+36/27.

ويوجد أيضا الطي بقطع الثمن؛ وفيه نماذج فهناك نموذج الطي A ويطابق الصيغة 3672/4581

ونموذج B ويطابق الصيغة 3236/8145

ونموذج C ويطابق الصيغة 5436/8127

ونموذج D ويطابق الصيغة 3654/2781.

أما قضية الترتيب فهي تفضي بالباحث إلى أن يتساءل عن المرحلة التي قطعت فيها صحائف المخطوط، خاصة وأننا قد نرى صحائف كتاب غير مقطع متماسكة من حافة الرأس أو من الطرة (وقليلا من حاشية الذيل)، أو

أننا قد نجد كتابا مصنوعا من مادتين مختلطتين.

والخزم هو ثقوب صغيرة تصنع في الصحائف وهو أيضا صوات ذات طابع تقني ضرورية لتتمة إنجاز «الكوديكس» الوسيطي وفيه أنماط؛ نذكر منه خزم التجليد، وخزم صناعة الملزمة، وخزم التسطير، وخزم تركيب الصفحات.

أما نسخ النصوص فهي المرحلة التي تأتي بعد اختيار مادة الكتابة، وتحديد نوع الملازم، وإنجاز تركيب الصفحات. وكان عمل النساخة يتم فرديا إلا أنه ومراعاة لما يسفر عنه العمل الفردي من بطء، فقد كان يحدث في الغالب أن مجموعة من النساخ يتعاونون في إنجازه. ويرتكز عمل الكوديكولوجي على التماس الصلات بين الأشكال الحرفية في الكتب المنتمية إلى نفس الفترة الزمنية، أو إلى نفس المنطقة، وملاحظة ما يفعله الناسخ بمادة الكتابة وخاصة في الحالات التي تكون فيها هاته الأخيرة مكمشة ومقرضة. فالناسخ غالبا ما يقيم وزنا لعيوب الجلد. ولاينتسخ الكلمات في الأماكن التي توشك فيها هاته الأخيرة ألا تكون مقروءة على الوجه التام. كما يجب على الكوديكولوجي أن يلاحظ مدى احترام المساحة المكتوبة. وما إذا كان هناك ساكف يغلق مساحة النص أم لا. ويجب معرفة مجموعة من العلامات الموضحة للنص، من مثل الرسومات، والزخارف، والأشكال.. ويقف عالم المخطوطات أيضا على مختلف أنواع التهميشات من مثل التهميشات التاريخية التي تضم حرود المتن، واستهلالات النصوص،

ونهايات النصوص، وعلامات التملك أو الانتماء، والتهميشات الإجرائية التي تضم العناوين الجارية، والحواشي، ومختلف أنظمة الترقيم والتصفيح. والتهميشات التقنية، والتهميشات الخاصة وهي عبارة عما يدونه النساخ من أمور شخصية وأفكار شاردة، وهلم جرا.

وبعد هذا يتحدث المؤلف عن مراقبة النساخة، والقيام بالتصحيحات، وهي المهمة التي تكون في نهاية النساخة. ويشهد عليها بتهميش خاص بعبارة رومانية مختزلة. وفي هذا الباب يجب أن نفرق بين خط الناسخ، وخط المراجع.

وتأتي مرحلة الزخرفة بوصفها إحدى مراحل إنجاز المخطوط الوسيطي. فالكتب كما هو معروف لم تكن جميعها مزخرفة، إذ إن الكتب المدرسية والتعليمية كانت ذات زخارف قليلة وأثمنة زهيدة وفي المقابل كانت الكتب التي يطلبها الأمراء الكبار مزخرفة في درجة من الثراء تصبح معها هاته الآثار مؤلفات ثمينة وغالية الثمن. والكوديكولوجي إنما يتغيى من الزخرفة معرفة تقنياتها وكل الظواهر المرتبطة بالرسم التي تسمح بتأريخ أو موضعة الكوديكس، ويهتم أيضا بكل الشواذ وبكل الخصوصيات الزخرفية التي من شأنها إظهار أصل مخطوط معين، وشروط إنجازه. وفي إطار الزخرفة يتم الحديث عن النمانم، والحواشي، والغشاوات المزخرفة، والنقشيات، والعناوين

المزخرفة، وما إلى ذلك[1].

هاته في اختزال كبير مختلف المحاور التي يجب أن تستوعبها الكوديكولوجيا حسب «جاك لومير». ونرى أن فلسفته في هذا الحقل المعرفي كانت رائدة فيما يخص التحديد الابستيمولوجي، فهو قد عبر بطريقة جوانية عن الاستقلالية النسبية للعلم. وهو من جهة أخرى شرع لنا إمكانية الحديث عن أركيولوجيا من نوع خاص تكون فيها حوامل المعرفة أو أوعيتها مادة صميمة للدراسة والتنقيب. .

(1) للتوسع يراجع:

Introduction à la Codicologie

- Jacques - lemaire -

الهلا حُلص

البعد الأركيولوجي في فهم الكوديكولوجيا

نموذج "ليون جلسان" من خلال كتابه "تمهيد إلى الكوديكولوجيا"[(1)]

سؤال هام جدا

إن السؤال الذي أسيل حوله حبر كثير بصدد علم المخطوطات هو ما إذا كان هذا الميدان العلمي علما مساعدا أو علما أساسا..

والحال أن هذا العلم ذو منفعة بينة للعلوم الأخرى، ونحن لانستغرب هذا الأمر إذا ألفينا أن العلوم كلها متداخلة ومتآزرة.. فالكوديكولوجيا تنبني بدورها على التجربة، بيد أن التجربة في نظر «ليون جلسان» تبقى فارغة من المعنى إذا لم نتأكد منها كميا، وهذا سر العنوان «تمهيد» إذ يقول «إن الكوديكولوجيا هو علم حديث مبني على الملاحظة لعدد كبير من الشواهد حيث مازال أغلبها في حاجة إلى المساءلة»[(2)].

---

(1) Léon Gilissen. Prolégomènes à la Codicologie.

(2) Ibid, page 10

ويهيب فوق هذا بالنظرية بوصفها توأم التجربة، فالنظرية والتجربة ملتحمتان في الاكتشافات القادرة على تحديد المسلمات التي كانت تشكل القاعدة.

ومادامت الأركيولوجيا مرتبطة جوهريا بالملاحظة، فإن إغناء هذا العلم متوقف على اختيار الوقائع.. بيد أن هذا الاختيار في حقل الكوديكولوجيا مازال هشا مما يدل على نمط من الملاحظة قد يسمى الملاحظة الأولية.

1- أركيولوجيا علم المخطوطات: صنع الملزمة

ثمة أسئلة متعددة تطرح بهذا الخصوص، وكلها محيرة لذلك الوله الواقف على أطلال المخطوطات. ومنها: كيف تحضر الملزمة قبل الكتابة أمام الناسخ المهيأ للكتابة؟

وكيف صنعت الملزمة ذاتها؟. إن الفحص الحفري هو الذي من شأنه أن يوضح أبعاد هاته المسألة. ولعل الأجوبة ستكون واضحة، ولكنها لاتخلو من التعدد....

إننا نتحدث قبل كل شيء عن الرق، وعن واجهتيه الداخلية والخارجية؛ الواجهة العليا والواجهة السفلى. وتختلف الواجهتان من حيث اللون، فالواجهة العليا قاتمة نسبيا وأقل ملاسة ومظهرة لعلامات جذور الزغب، أما الواجهة السفلى فهي على النقيض من ذلك نيرة نسبيا، وفيها ملاسة

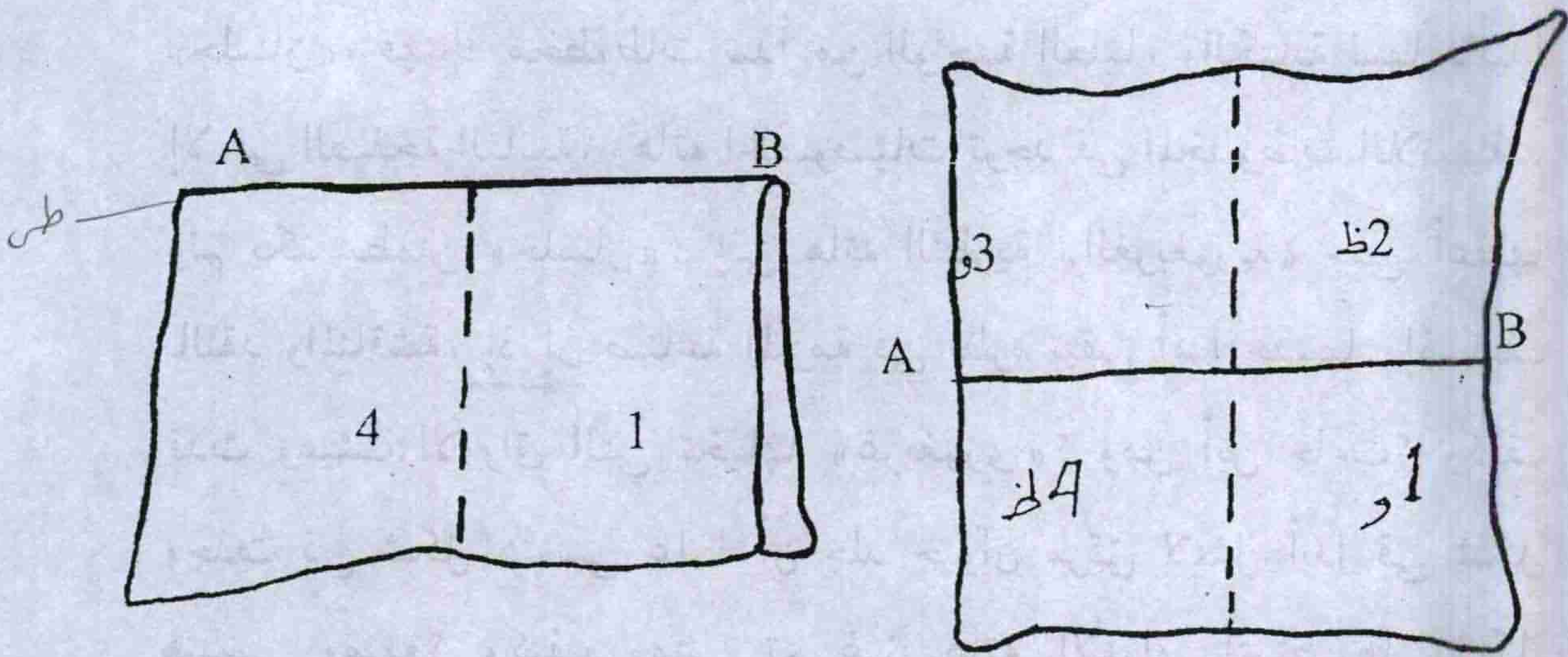
وانصقال، ولاتظهر فيها علامات الزغب.. وحين يجد الرقوقي نفسه أمام كومة من الصحائف الرقية، فإنه يأخذ صحيفة ويضعها على المائدة بشكل يجعل فيه الواجهة السفلى من الأسفل، وفوق هذه الورقة يضع ثانية بشكل تكون فيه الواجهة العليا من الأسفل، وفوق الثانية يضع صحيفة ثالثة بشكل يجعل فيه واجهة اللحم هي السفلى وفوق الثالثة يضع رابعة بشكل يجعل فيه واجهة الشعر هي السفلى... فيقوم بطي الأوراق الأربعة مجتمعة من الوسط، ويوحدها بخيط مشكوك في الوسط، وتشد هاته الخيوط إلى خرزات تجليد الكتاب فنحصل في النهاية على الملزمة.

وبطبيعة الحال ليس هذا هو النمط الشائع في صنع الملزمة حسب «جلسان»، فهناك مخطوطات تبدأ من الواجهة العليا، والكتابة فيها لاتبدأ إلا في الصفحة الثانية، وهاته الخصوصيات توجد في المخطوطات اللاتينية.. ولم يكد يطمئن «جلسان» إلى هاته النظرية «الغريغورية» حتى أعقبها بالنقد والمناقشة، إذ إن صناعة الملزمة في نظره تبقى أمرا حدسيا. إذ كيف قدت وهيئت الأوراق التي تخيلها «غريغوري»؟ ومن أين جاءت؟ وكيف وجدت في شكل هندسي علما أن جلد حيوان مرقق لايمثل أبدا في شكل هندسي ومربع؟ وكيف ومتى تم غرز هاته الأوراق لتسطيرها بشكل متشابه؟. هاته الأسئلة وشبيهاتها العديدة هي التي لاتجعل الأركيولوجي يطمئن إلى الأحكام التخمينية، ويبقى باب الحفر مفتوحا على مصراعيه.

2- أركيولوجيا علم المخطوطات: طي الملزمة

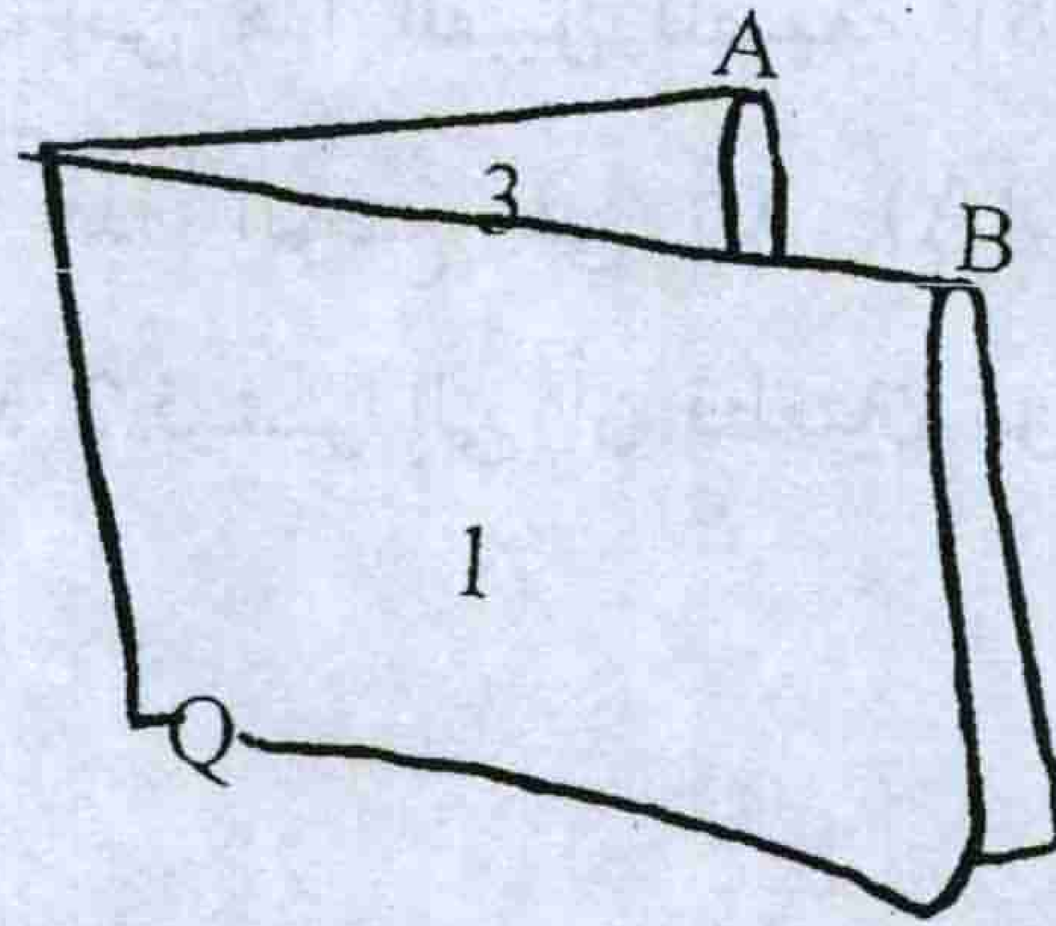
- الطي بقطع الربع: In quarto

الطية الأكثر ترددا في قطع صحيفة بقطع الربع تأتي على صيغة 32/41، إذ يطوي الجلد للوهلة الأولى تعامديا مع فقار الحيوان، ويرمز إلى الطية الخط (AB). ويبسط شق الجلد من هاته الطية بطريقة تظهر بها دائما الصحيفة 1 و (شكل 2).



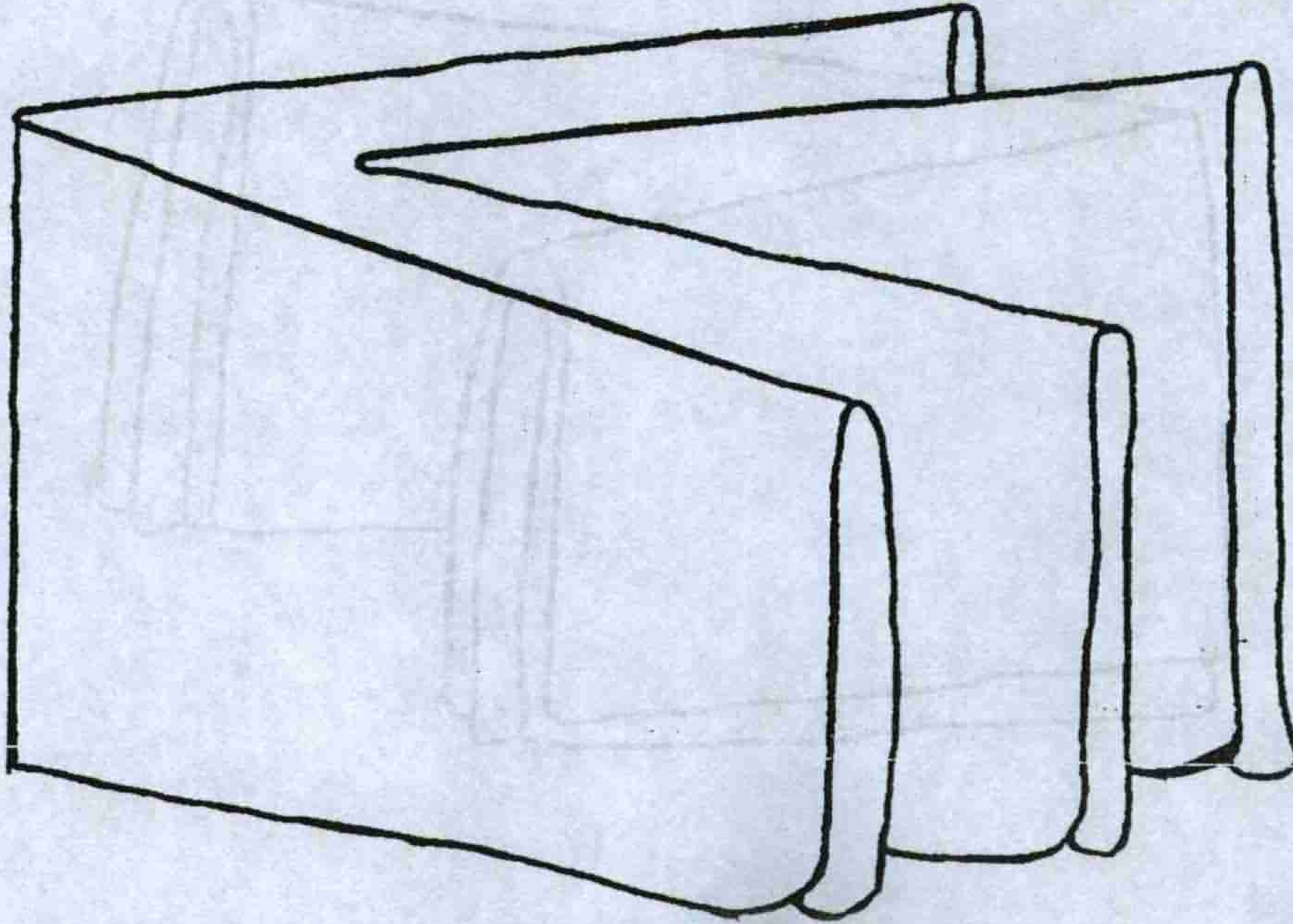
شكل 1: صناعة ثنائية، جلد مبسوط شكل 2: صناعة ثنائية: أول ثنية

ونصنع ثنائية بطي A و 4 ظ وراء B و 1 (شكل 3)



شكل 3: صناعة ثنائية. الطية الثانية.

أما الرباعية فيمكن أن نشكلها بدمج قطعتين من الجلد مطويتين كل واحدة في شكلٍ ثنائية (شكل 4).

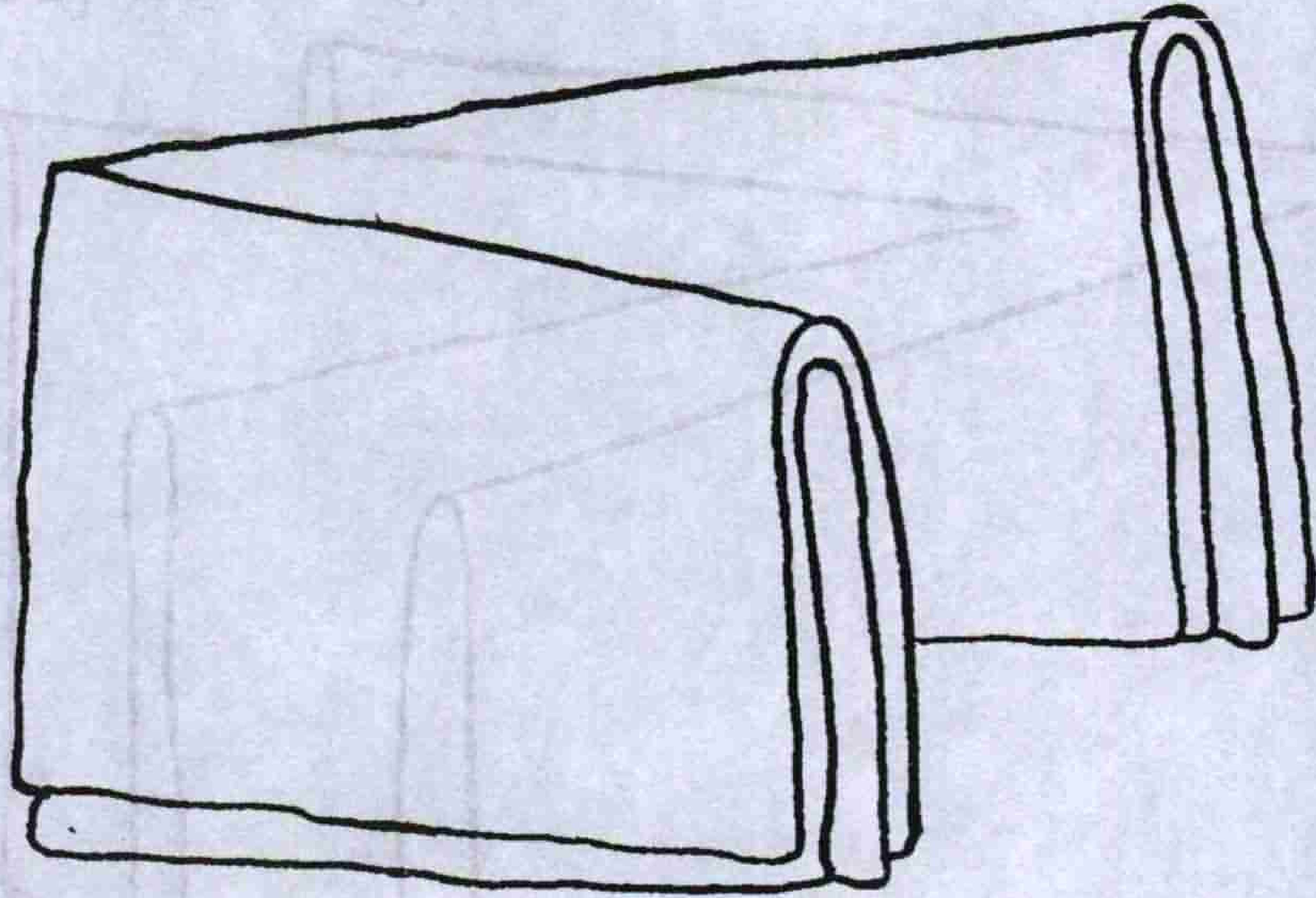


شكل 4: ثنائيتان مندمجتان مشكلتان رباعية

وتستجيب رباعية من هذا القبيل للصيغة 36/45+72/81. والطريقة البسيطة للتعبير عن هذا الوضع هي A^2 (Aأس 2) ترمز A إلى 3672/4581. أما العدد 2 فيشير إلى أن قطعتين من الجلد قد أسهمتا في صناعة الرباعية.

إن تشكيل الرباعية لاتقف عند الطريقة المبينة أعلاه. فيمكن أن تتشكل بطريقة أخرى ويتعلق الأمر بالصورة C^2 (ينظر الشكل 5).

C^2=54/81 + 36/27



شكل 5: قطعتان من الجلد مطويتان معا بقطع الربع يشكلان رباعية

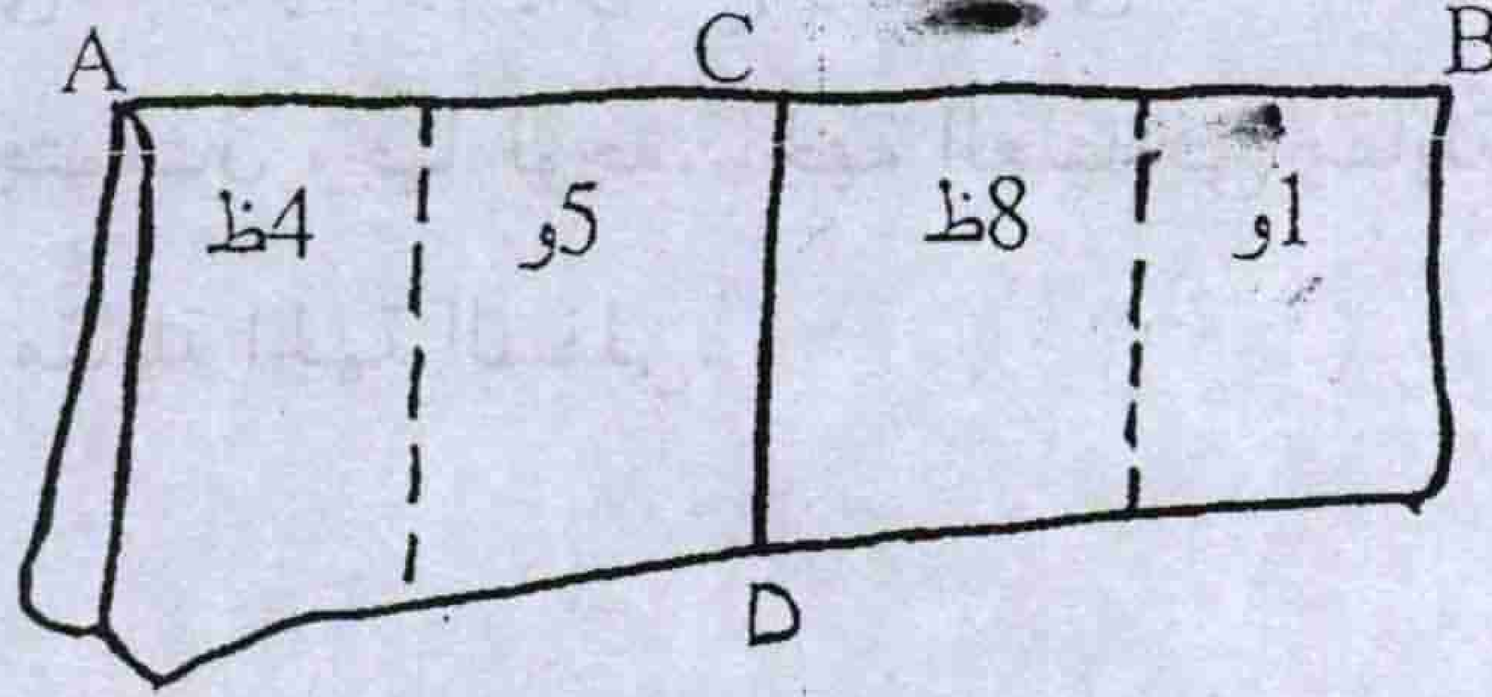
ويذهب «جلسان» إلى أن هاته الصياغة قليلة الوقوع في المخطوطات، ولو حظت في المخطوط باريس، خ،و، لاتيني 2855. وتنتج عن طي قطعتين من الجلد مجتمعتين وجها لوجه، الجهة العليا في مقابلة الجهة العليا، والجهة السفلى في مقابلة الجهة السفلى.

الطي بقطع الثمن

يشير هذا الضرب من الطي إلى إمكانية الحصول على ملزمة من ثمان صحائف إما انطلاقا من فرخة واحدة أو أكثر. والصياغة الأولى رمز إليها «ليون جلسان» ب A حيث A=3672/4581 ويشير A دائما إلى نفس العدد 3672/4581. بيد أن غياب الأس يعني أن الرباعية قد تشكلت من قطعة جلدية واحدة (شكل 6). تطوى القطعة الجلدية في بداية الأمر من المحور (AB) في موازاة مع فقار الحيوان (الشكل 7). وقد رمز لهاته الطية الأولى بالخط الأفقي الذي يفصل صورة الكسر عن مقام الكسر.

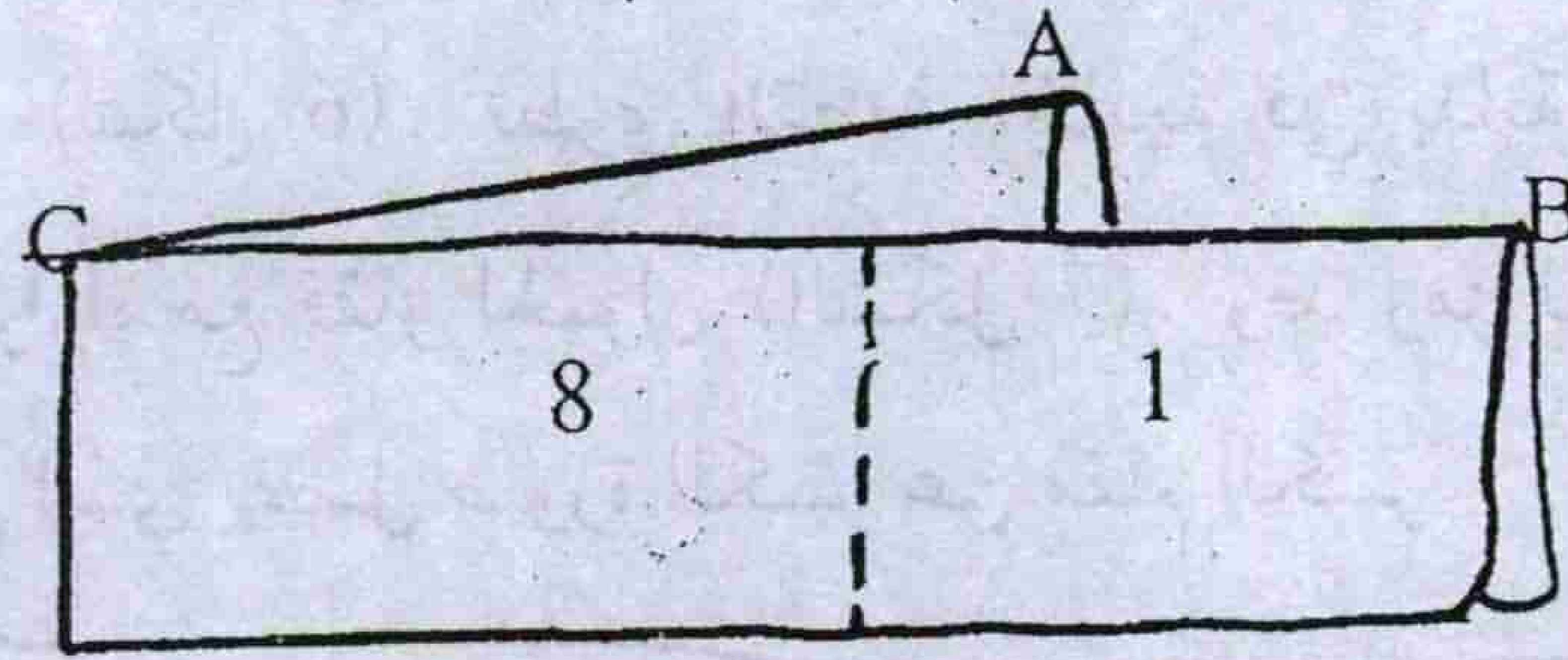
2ظ	7و	6ظ	3و
1و	8ظ	5و	4ظ

اعية منفصلة من صورة A (3672/4581)



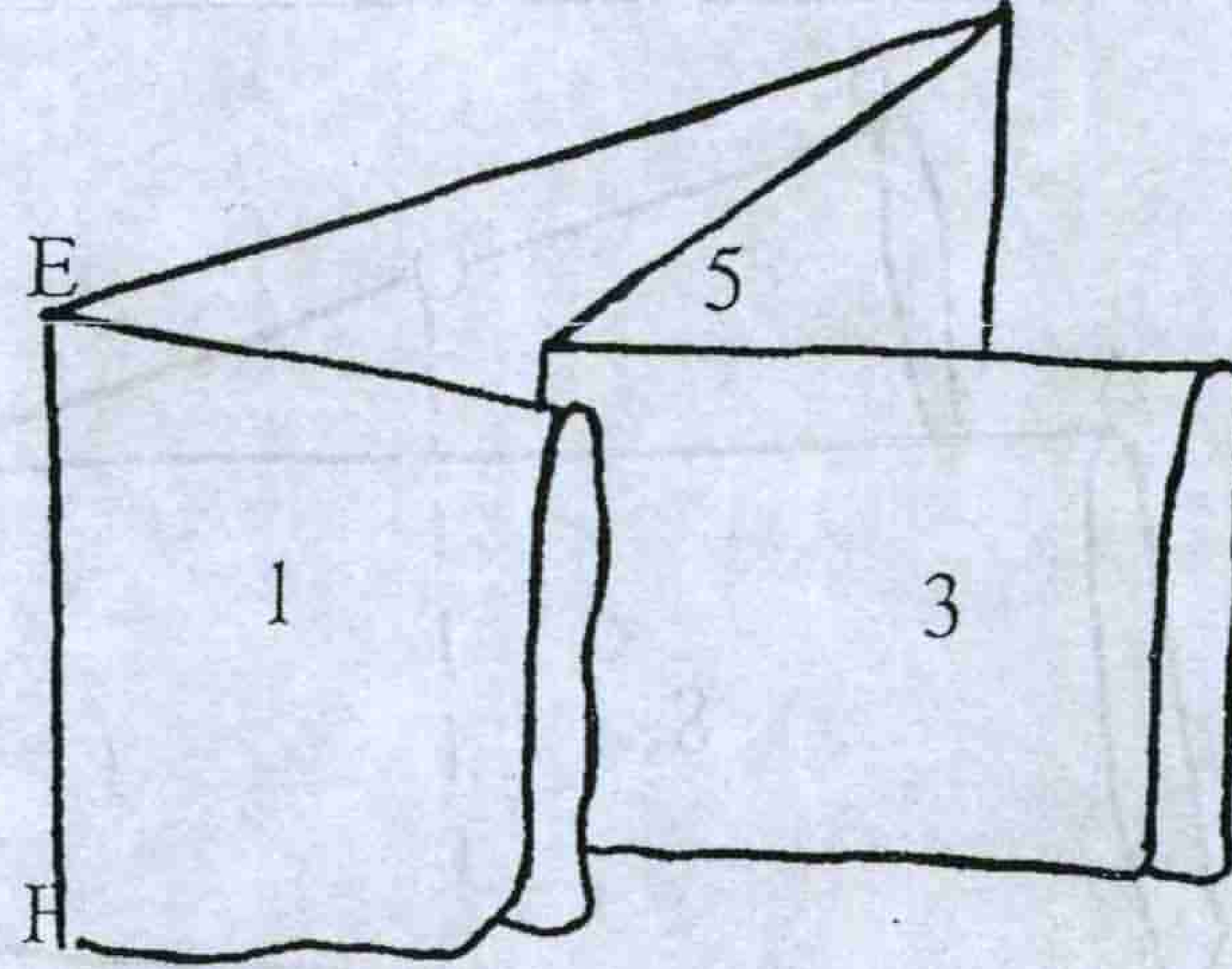
شكل 7: صناعة رباعية من صورة (الطية الأولى) A

وبعد الطية الأولى، نطوي الصحيفة المزدوجة المحصل عليها حسب المحور (CD) ونبسط الجزء ACD وراء الجزء BCD (ينظر الشكل 8).



شكل 8: صناعة رباعية في صورة A (الطية الثانية)

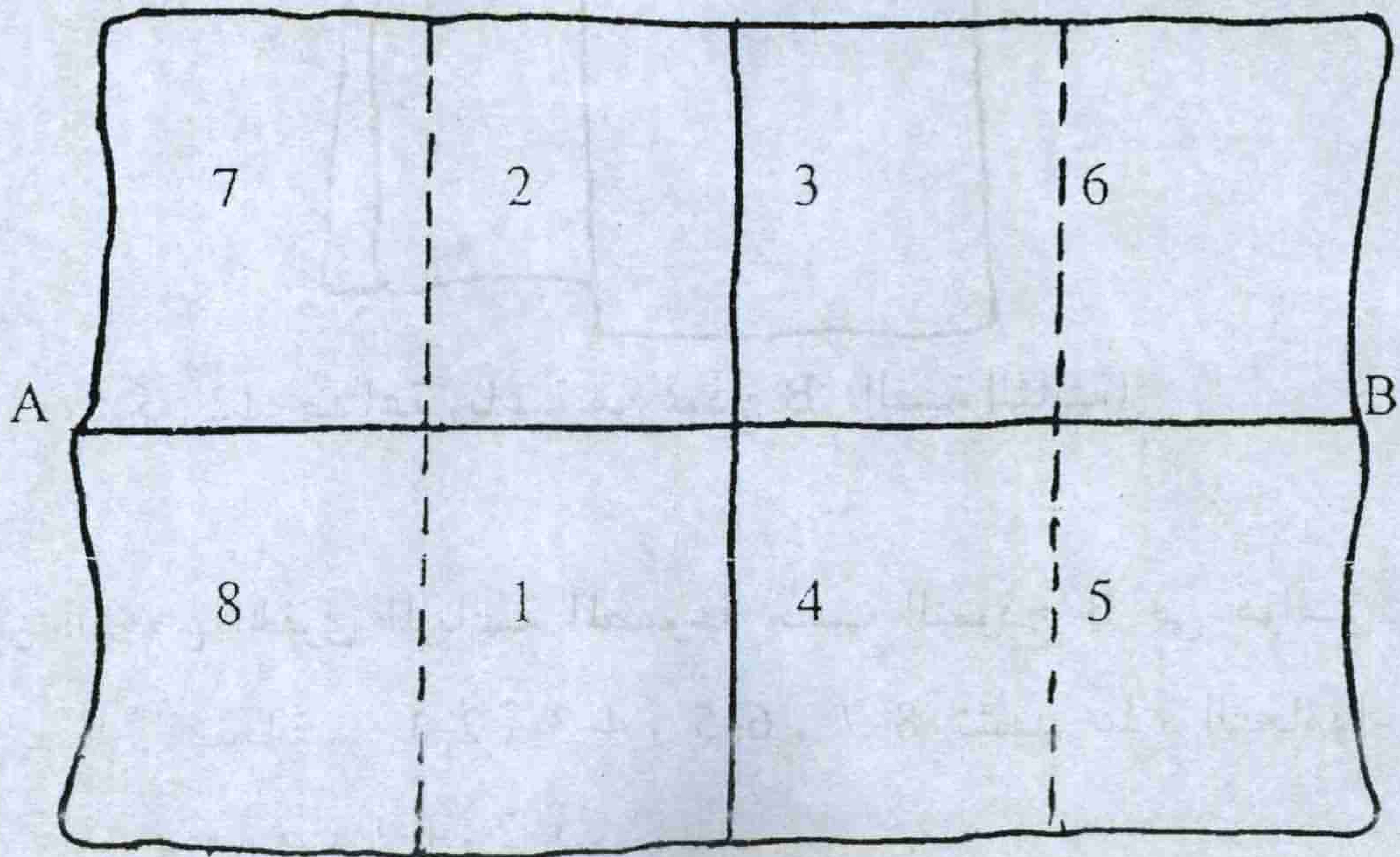
وهكذا نحصل على صحيفتين مزدوجتين نطويهما من المحور EF، ونبسط الجزء CEFD وراء BEFG لنكون في النهاية رباعية منتظمة.



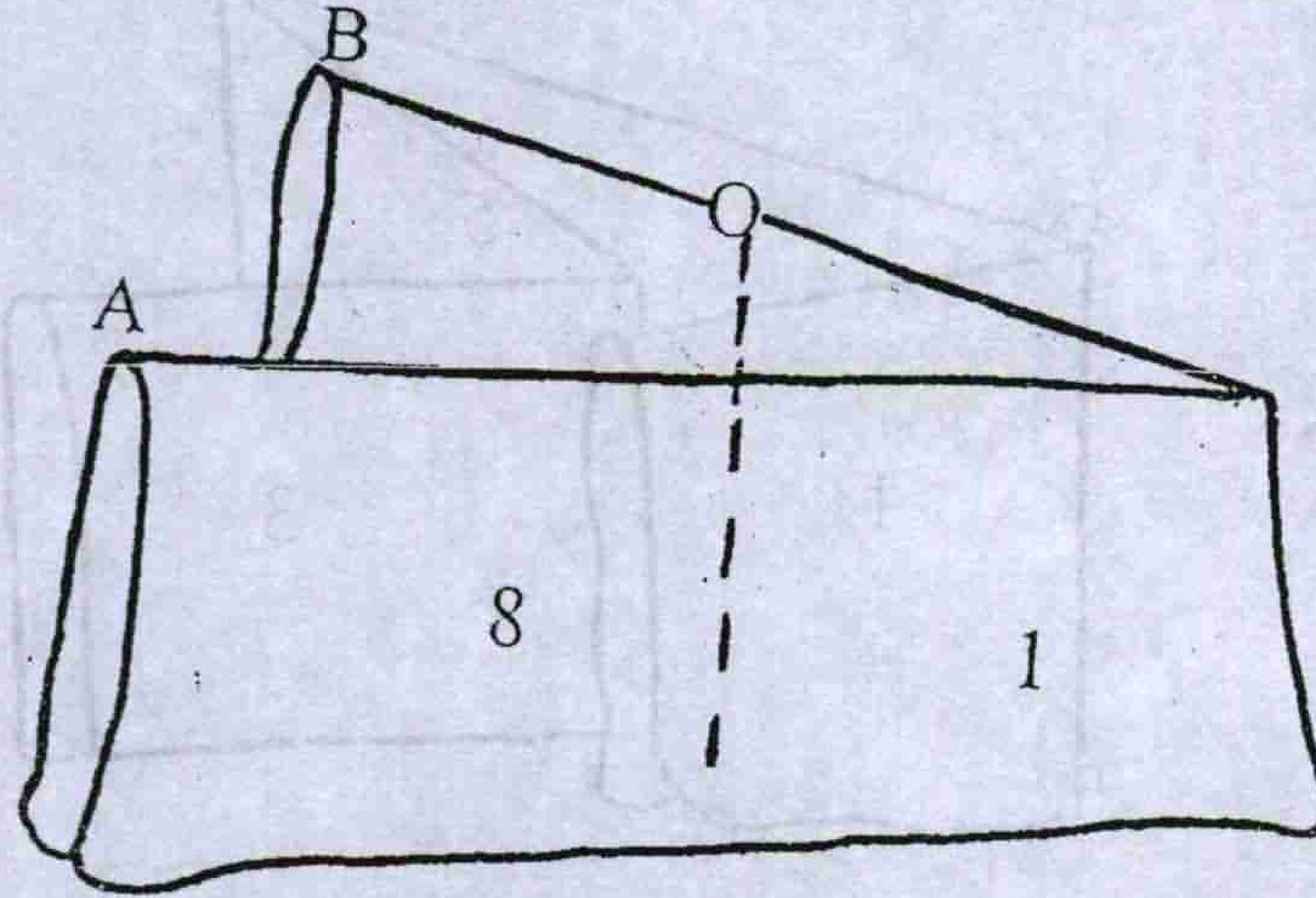
شكل 9: صناعة رباعية من صورة A (الطية الثالثة)

وهناك نموذج آخر لصناعة الرباعية أطلق عليه الحفريون النموذج B ويساوي 7236/8145.

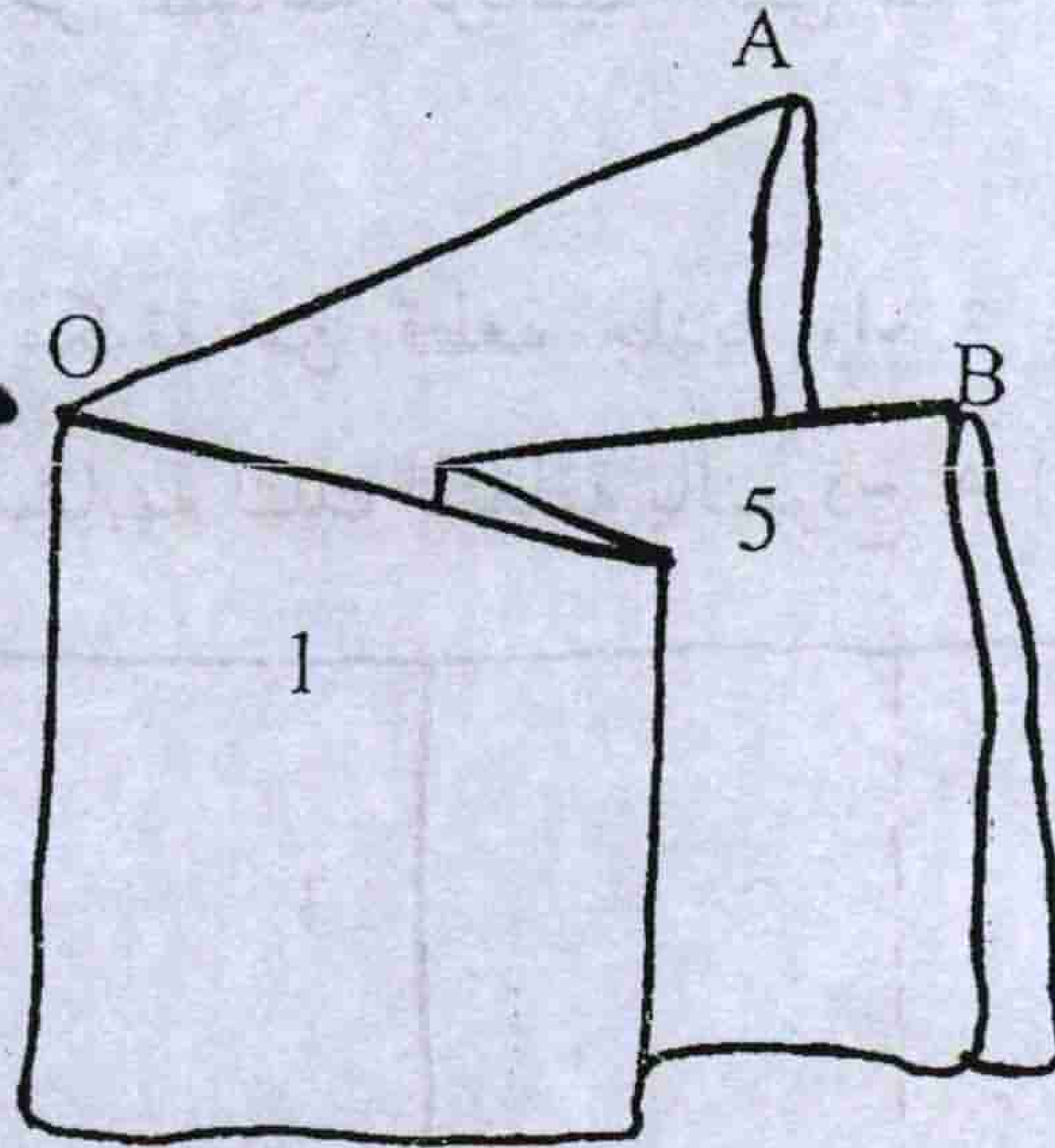
والرباعية هنا مكونة من قطعة جلدية واحدة منطوية بقطع الثمن، والطية الأولى فيها مشابهة لتلك المتعلقة بالنموذج A (الشكل 7).



شكل 10: رباعية منفصلة من نموذج B



شكل 11: صناعة رباعية من نموذج B. 7236/8145 (الطية الثانية)

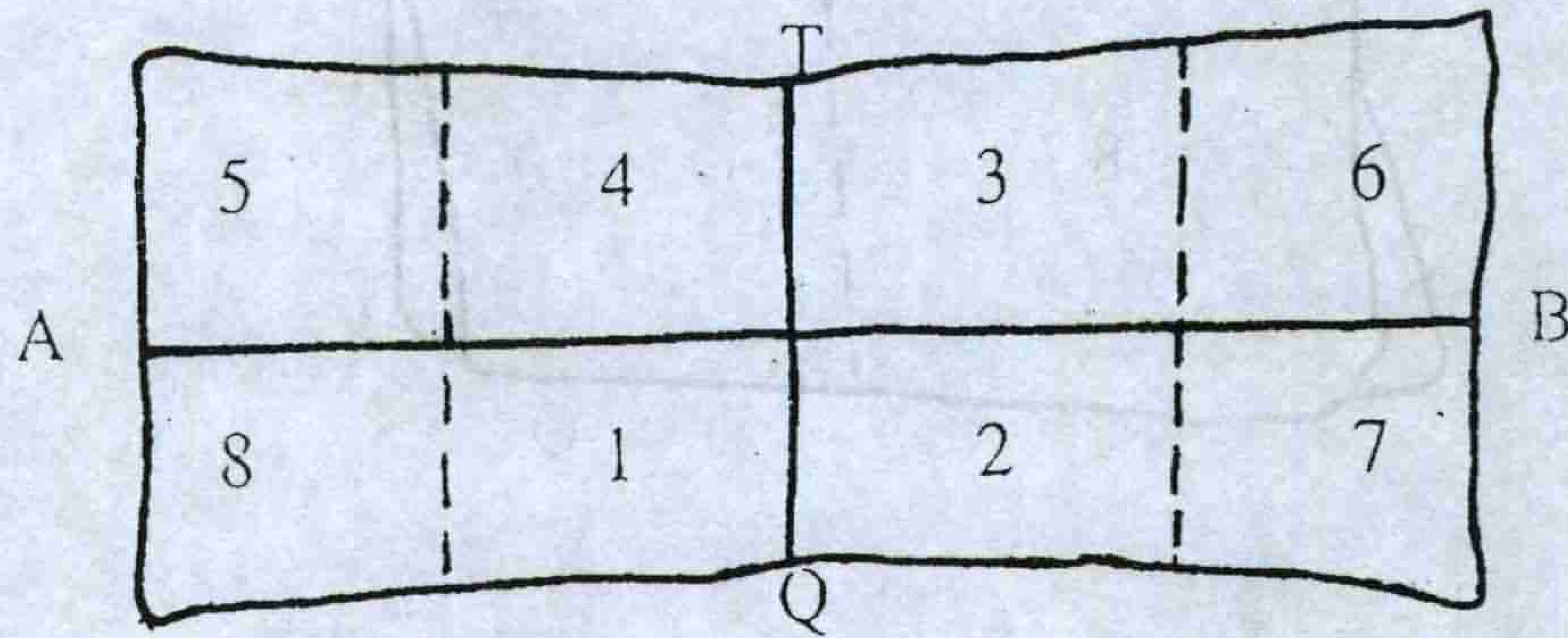


شكل 12: صناعة رباعية من نموذج B (الطية الثالثة)

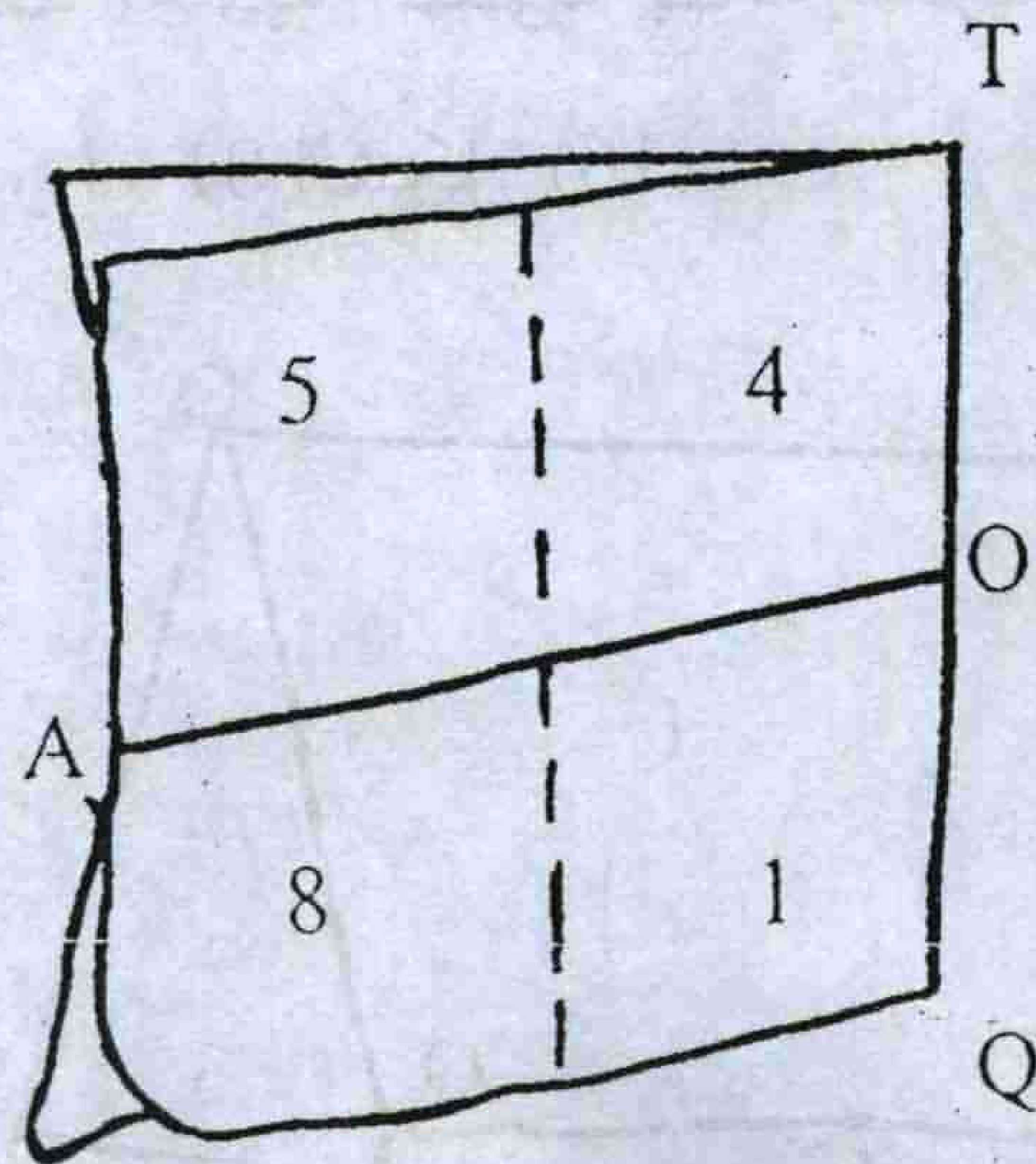
إن الفحص الحفري للرباعية المصنوعة حسب النموذج B في هوامش الفرق يجعل الصحائف 1-2 و 3-4 و 5-6 و 7-8 تشهد على التحامها القديم، وكذا حوافي طرر 1-4 و 2-3.

وهناك نموذج ثالث لصناعة الرباعية هو النموذج C وهو يساوي

C=5436/8127. ويختلف هذا النموذج منذ الطية الأولى عن النموذجين A و B. فالقطعة الجلدية (شكل 13) منطوية أولا تعامديا مع فقار الحيوان مع إرجاع الواحد وراء الآخر، الرأس والذيل (شكل 14).

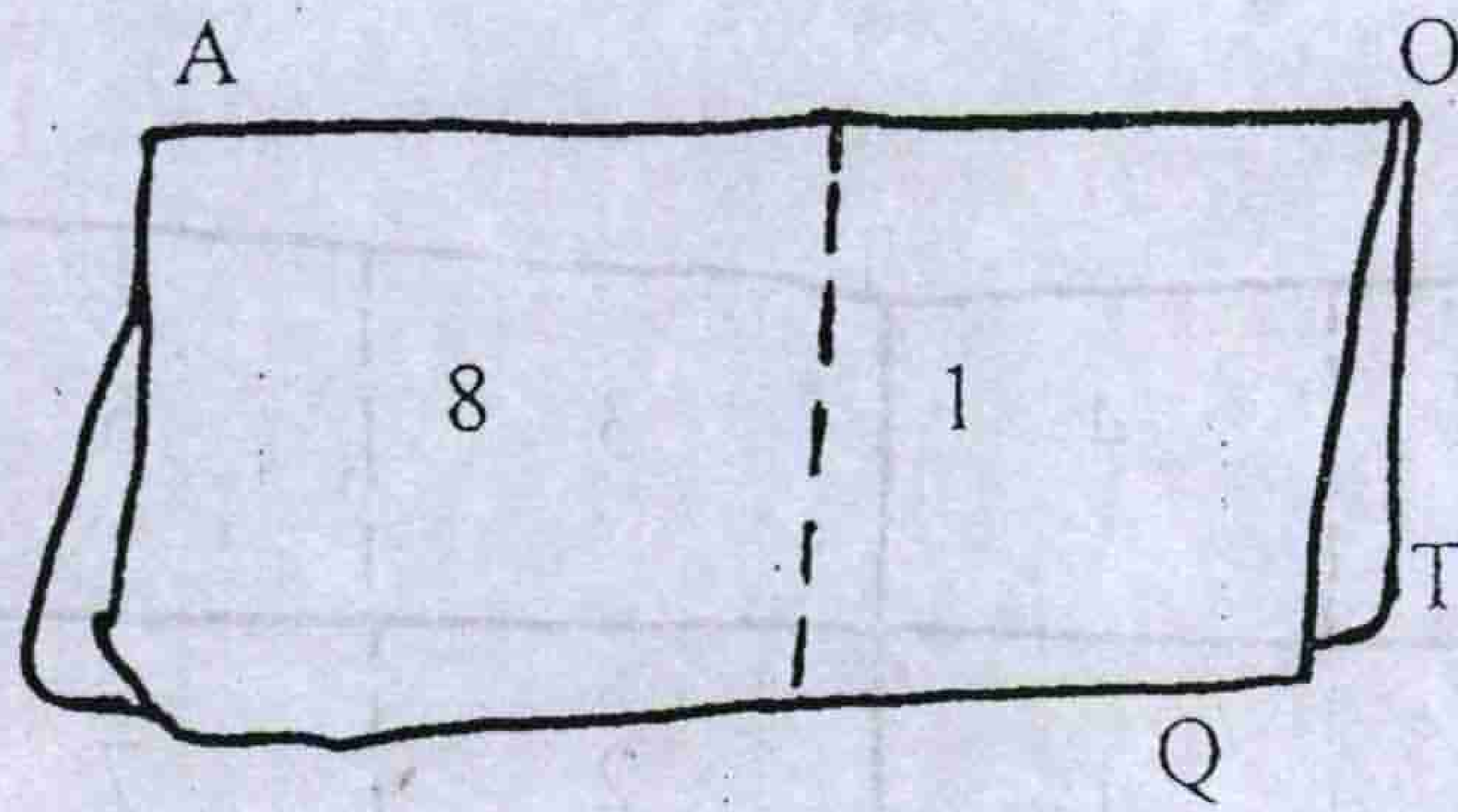


شكل 13: رباعية منبسطة من نموذج C



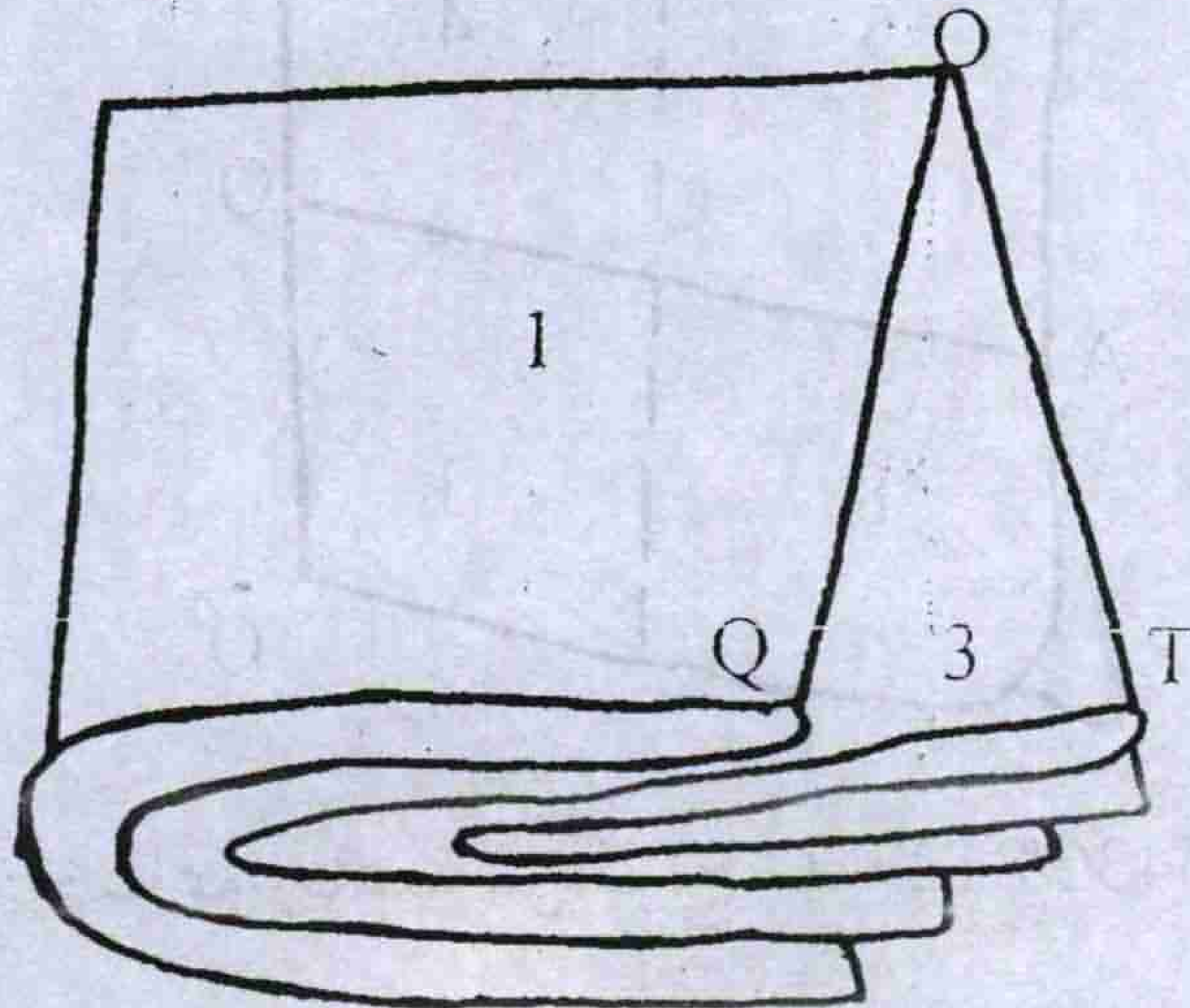
شكل 14: صناعة رباعية من نموذج C. 5436/8127 (الطية الأولى)

وانطلاقا من الشكل 14. نطوي 4 ظ 5 T وراء 1 8 ظ مع جعل AO فاصلا، هكذا ننجز (الشكل 15).

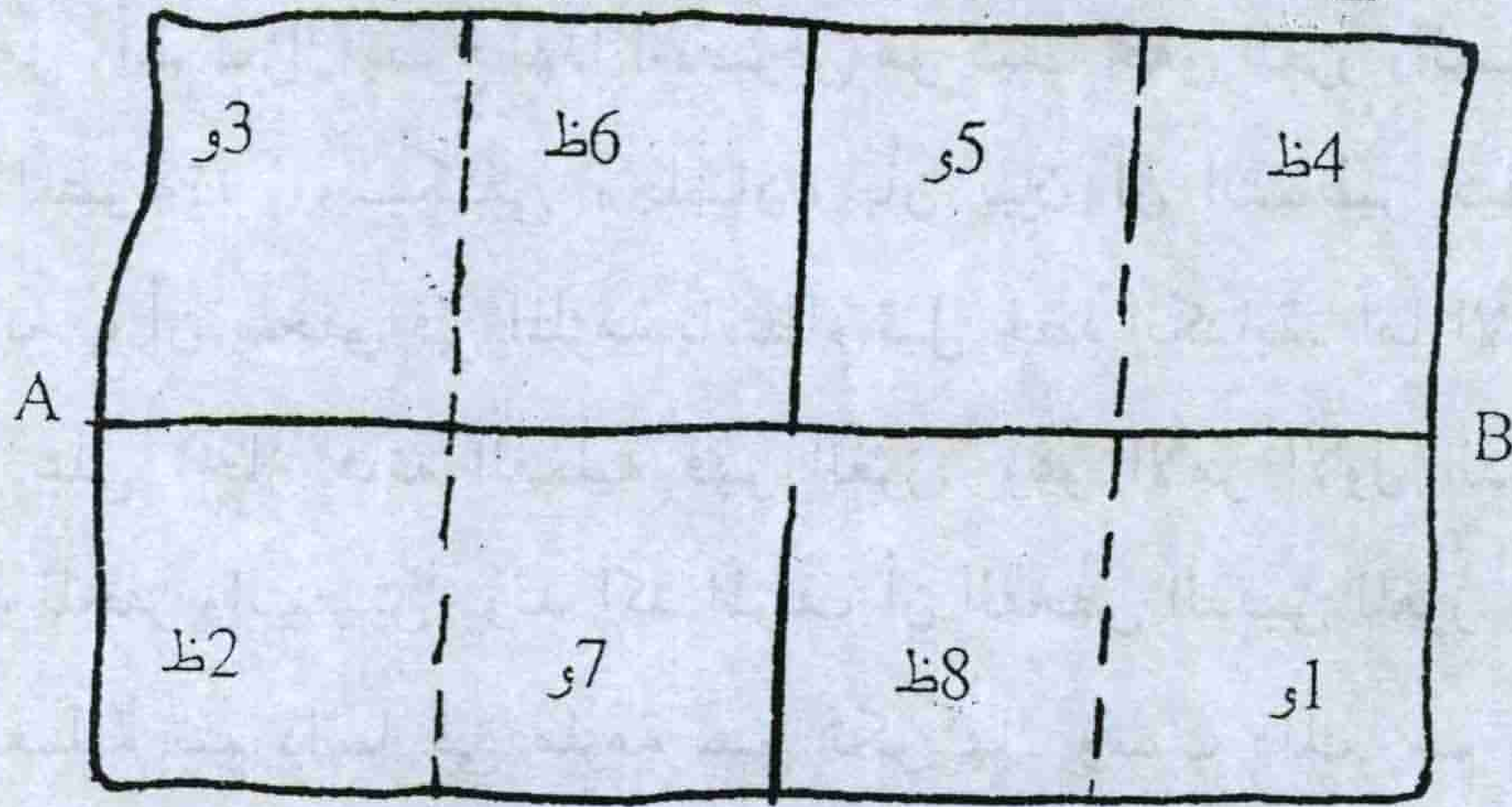


شكل 15: صناعة رباعية من نموذج C(الطية الثانية)

وتطوي القطعة الجلدية المنطوية بهاته الطريقة للمرة الثالثة والأخيرة، وذلك بطي 8 ظ A وراء 01 الشكل (16).

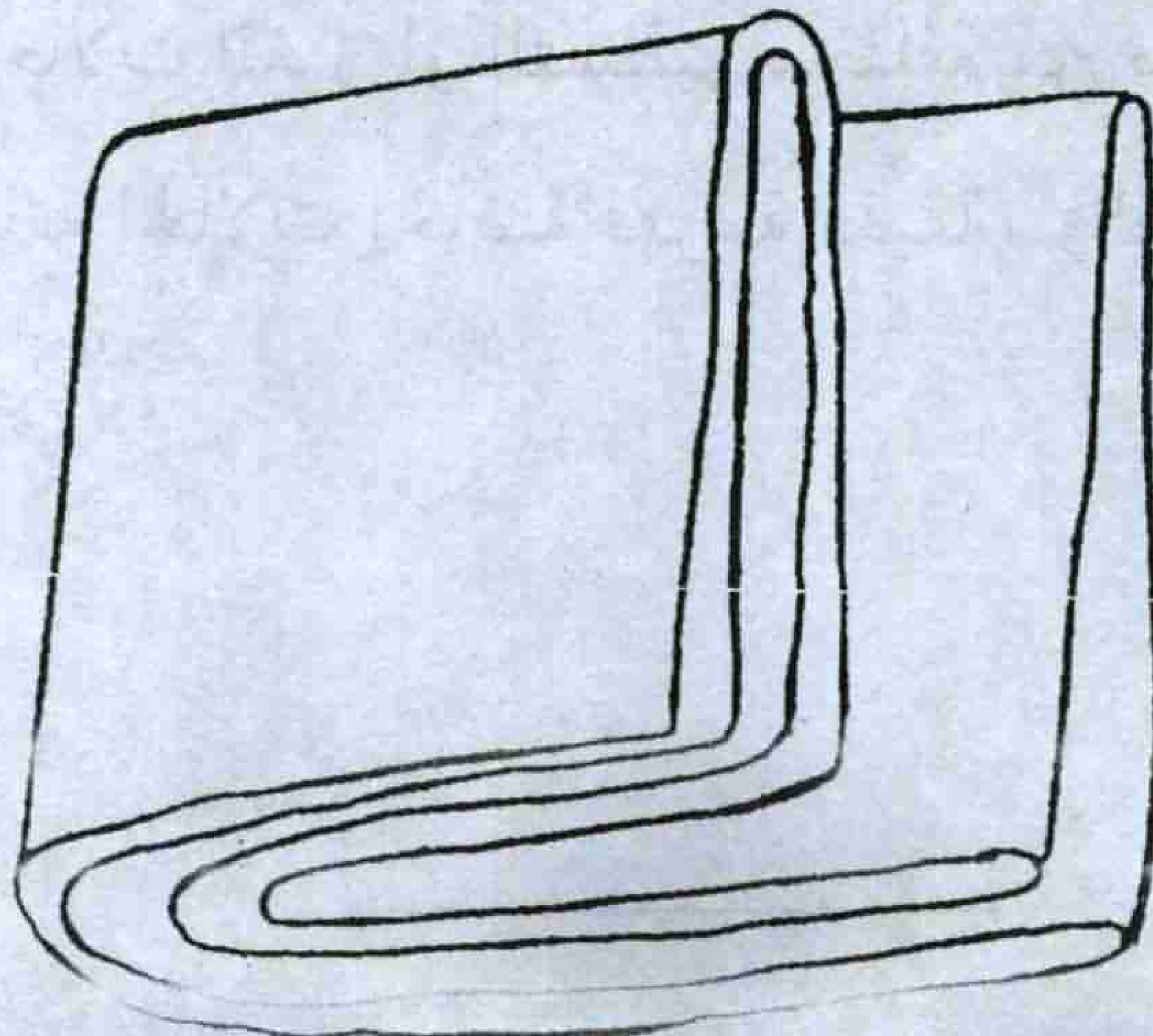


النموذج D=3654/2781. يلاحظ «ليون جلسان» أن هذا النموذج قليل الورود، ويوضح الشكل 16 رباعية منفصلة منه.



شكل 16: رباعية منفصلة من نموذج D

والطي في النموذج D لايختلف عن النموذج C إلا في الطية الأخيرة، فعوض أن نطوي 8ظ A وراء 01 نطوي 8ظ A على 01.



شكل 17: رباعية منجزة من نموذج D

3- أركيولوجيا علم المخطوطات: مسألة التسطير

لعل أهم سؤال يطرح بهذا الخصوص هو كيف تحقق الغرز والتسطير في الملزمة المطوية؟، وسيكتفي «جلسان» بأن يبين أن التسطير كيفما كان نوعه، يجب أن يتحقق في الملزمة بانتظام قبل لحظة الكتابة. أما الأمر الذي يساعد على إنجاز هاته العملية فهو الغرز. وهو الأمر الأول الذي وجب إرضاخه للحفر والتنقيش. وقد أكد المؤلف أن الفحص الدقيق للغرز يظهر أن هاته العملية تتم دائما في ملزمة سبق تكوينها. وسبب ذلك رسم مجموعة من الأوراق بعملية واحدة[1]. لأننا نلاحظ حسب «جلسان» أن الانحرافات الصغيرة وعدم الدقة في رصف الغرزات تظهر بشكل متماثل في كل صفحات الملزمة، أما التسطير فشأنه شأن الغرز يتم دفعة واحدة حينما نسطر بالمنحت. ونسطر كل صحيفة على حدة حينما نستعمل رصاص القلم أو المداد. ويشير الكاتب إلى أن حالات الغرز أو التسطير مختلفة من مركز إلى آخر، ومن هنا ضرورة فهرسة هاته الحالات الخاصة فهرسة دقيقة، والفهرسة بدورها تقع على عاتق الأركيولوجي[2].

---

(1) صفحة 36.

(2) صفحة 37.

4- أركيولوجيا علم المخطوطات: ترتيب الصفحات

ننطلق هنا أيضا حسب ما يدعو إليه «ليون جلسان» من فرضيات متسائلة، ومن ذلك هل يقص الناسخ ملزمته استجابة لضرورة فعل النساخة؟ هناك نتيجة حفرية توصل إليها المؤلف ومفادها أن هناك كثرة غير مسطرة، ولكن غير مكتوبة، وهذا يدل على أننا نفكك الملزمة دون قصها لكي نكتب عليها. أما فيما يخص مسألة التسطير بالمنحت فإنه يتم تفكيك الملزمة جزئيا ويتم تسطير ثلاث صحائف أو أربع في مرة واحدة. أما فيما يخص التسطير برصاص القلم أوبالمداد فإنه يتم تفكيك الملزمة كلية وتسطر من الوجه إلى الظهر، أما بالنسبة للملزمات من صورة أ2، فإن كل مزدوجة تسطر على حدة مفككة.

ومع هذا تبقى هاته القضايا مطروحة للبحث. فانتساخ النص في ملزمة مسطرة، يحرر الناسخ أوراقها عند الاقتضاء، تبقى فقط نتيجة لوجود الأوراق غير المقطعة وتبقى الفرضية غير مؤكدة.

ونفس الأمر يقال عن النسخ الكامل على الملزمة المفككة غير المقطعة، إذ تكتب الملزمة ويعاد طيها وتبقى غير مقطعة ربما إلى لحظة التجليد. إنها نتيجة الملاحظة الأولية، ولكن هل توجد هاته الحالة بكثرة؟. هذا هو وكد المؤلف من ركائز مسألة التركيب.

وحينما يصل الناسخ إلى مسألة النسخ، فالسؤال الذي يبقى مطروحا

بهذا الخصوص هو: هل يكتب الناسخ على الرق المفكك غير المقطع؟. يدعو المؤلف إلى ضرورة إجراء مجموعة من التقصيات الأركيولوجية قبل الإجابة على مثل هذا السؤال. فالملاحظ أن الناسخ غالبا ما يحمل في يده سكينا، والسؤال: هل يستعمل هذا السكين فقط لإصلاح بعض أخطاء النسخ القليلة؟. إن الكشط من هذا النوع حسب «جلسان» قليل الوقوع ولايفرض على الناسخ أن يحتفظ دائما بالسكين في يده لهذا الغرض القليل الوقوع.. إذن يذهب «جلسان» من هذا المنطلق إلى أن للسكين أدوارا متعددة ومن ذلك المحافظة على حجم الرق، وبري القلم، ولم لا أيضا في قطع أوراق الملزمة المطوية، ويكون هذا القطع في موازاة مع حاجيات النساخة. بيد أن الأمر الجوهري من كل هذا هو تعالق هاته الافتراضات كلها مع التخمين، والظن. ويبقى أن نقوم بمجهودات حفرية لكي نؤكد مثل هاته الفرضيات وهاته المجهودات ستتركز بطبيعة الحال على البحث الكمي...

5- أركيولوجيا علم المخطوطات: تركيب الصفحات

يذهب «ليون جلسان» إلى أن التسطير عنصر في غاية الأهمية، بيد أنه جزئي ضمن تركيب الصفحات ككل.. فانطلاقا من دراسة هذا الكل يمكن معالجته. والأمر العالق عندنا هو هذا التناغم وتلك الهندسة التي تلاحظ على التسطير.

إن التقصي الذي يجريه الباحث على المخطوطات يقفنا على مجموعة من الأشكال الهندسية البارزة، والمساحة الهندسية الأكثر ترددا حسب «جلسان» في المخطوطات: المستطيل، الصفحة المزدوجة، العمود، ونصف العمود.. وتلك هي المساحات المستطيلة التي تنتظم الواحدة إلى جوار الأخرى بغاية تمثيل النص بطريقة متوازية، وعقلية، ووظيفية، ومقبولة في العين. أما النص والحواشي فهي عناصر ملتحمة -وينتظر من مواد الكتابة أن تكون كافية لكي تتلقى الغرز الذي يمثل نقط الاستدلال لرسم السطور، ويحصل أن تقليم الأوراق أو تشذيبها يذهب نقط الاستدلال فلا نتفطن بسهولة للأبعاد الأصلية لمادة الكتابة. وهاته المسألة من العوائق التي تقف دون التقصي الحفري المجدي. بيد أنه إذا بقيت هناك الغرزات محفوظة فيجب أن تؤخذ بالاعتبار في لحظة تحليل تركيب الصفحات لأن الغرز أو التثقيب يعد في جوهره نقط استدلال لرسم السطور...

وقد أشار «ليون جلسان» فيما يخص هاته النقطة -وأعني بها تركيب الصفحات- إلى ثلاث مساحات بارزة، أوثلاثة مستطيلات بارزة؛ فالمستطيل الأول هو مستطيل فيتاغورس، لأننا نتوصل إليه بقلب رأسا لعقب مثلثين لفيتاغورس. والمستطيل الثاني هو المستطيل الذهبي. ويسمى مستطيل الذهب، ذاك الذي من زاويته الكبرى يساوي 1 ومن الصغرى يساوي 1,618 والمستطيل الثالث البارز يجمع متوالية من المستطيلات متوالية الصنع في غاية السهولة.

وهاته الأشكال هي التي لاحظها «جلسان» بشكل بارز وأردفها بالفصل الثاني من الكتاب وهي مجموعة من العينات المخطوطية تؤكد الخطاب النظري.

إننا في النهاية، ومن خلال هذا الجرد للمكونات الحفرية في فهم المخطوط بوصفه مادة، ننتهي إلى أن الثقافة الغربية، وعلى الرغم من هاته المجهودات التي بذلت بإزاء هذا العلم الغض، مازالت في حاجة إلى تراكم الجهود لإكساب الكوديكولوجيا مشروعية كمية، أما في الثقافة العربية فما زلنا في سبات عميق. مازالت لغتنا لم تعرف قاموسا كوديكولوجيا بله أن تجد في تعميق حفريات العلم...

رائد الكوديكولوجيا بالمغرب

أحمد شوقي بنبين

إن سيرورة الفكر هي سيرورة نقد الفكر، محاولة تبين الثغرات التي تشينه وتداركها. إن للفكر تاريخا تراكميا يميزه البطء في العلوم الانسانية، وبعض السرعة في العلوم الحقة.. وهكذا انتقل الفكر من لحظة تميزت بهيمنة النظرية الضيقة الأحادية إلى لحظة تمردت على مقولتي الزمن والمكان[1]... في هاته الأجواء نزعت الدراسات الببليوغرافية، والباليوغرافية، والتحقيق العلمي إلى التماس النقص الذي كان يقف دون توخيها للدقة والعلمية.. إنها إذن النظرة الشمولية التي لاتجعل الباحث يقتصر على وثيقة مكتوبة ويثق فيها بكل سذاجة بل تدعوه إلى مقاربة الحقيقة عبر سبل كثر.. وهكذا وبعدما آنسنا من الباحث المغربي أحمد شوقي بنبين اهتمامه البالغ بالخزانات المغربية انطلاقا من كتابه الهام: Histoire des bibliothèques au Maroc نجده في كتابه: «دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي»، الذي

---

(1) ليفي ستروس مثلا تمرد ضد التاريخ وضد البعد المكاني في إجرائية المنهج يمكن أن نلتمس أسطورة في أمريكا الشمالية لكي نفهم أسطورة في أمريكا الجنوبية كما تمرد ضد الذات..

أصدره هاته المرة باللغة العربية، معنيا عناية بالغة بالكوديكولوجيا التي يعتبرها أم المعرفة في التراث، إنها إذن تشاكه المنطق في تعالقه مع العلوم الأخرى. وهي بهذا تتموضع في مكانة الرقيب على التراث والحارس على تلمسه انطلاقا من خارجيات محتوى المخطوط.. وهذا علم لم يكن للمغاربة والعرب عامة لهم به معرفة.. بل إنني سوف لا أخالف الصواب إذا قلت إن الكثيرين من الباحثين المحدثين الذي يشتغلون على التحقيق العلمي لا علم لهم بالكوديكولوجيا. فأغتنم هاته الفرصة لكي أدعوهم إلى ضرورة إعادة النظر في أعمالهم التي لاشك ستفتقر إلى أكبر عنصر في البحث العلمي ذلك هو علم المخطوط.. وعلى سبيل الاستئناس يمكن أن نقدم بعض المعطيات عن هذا العلم مركزين في ذلك على بعض مباحثه من خلال كتاب «دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي».

التعريف

إن أول من اقترح لفظ «الكوديكولوجيا» حسب الباحث المغربي أحمد شوقي بنبين، هو الفيلولوجي الكبير «ألفوس دان» المختص في المخطوطات اليونانية واللاتينية، وذلك سنة 1944م. وهي تعني دراسة العناصر التي يتكون منها المخطوط في غياب عما ورد في الوثيقة الأصل. والكوديكولوجي حسب هذا التفسير يقوم بعملية إعادة بناء للآثار المكتشفة،

وهو يخالف الباليوغرافي الذي يعنى أساسا بمادة الكتابة.. ويفصح الباحث في عبارة مجملة عن اصطلاح الكوديكولوجيا قائلا: «... هو (أي الكوديكولوجيا) علم يهدف إلى دراسة كل ما هو مكتوب في الهوامش من شروح وتصحيحات، وما إلى ذلك من معلومات عن الأشخاص الذين تملكوه أو نسخوه أو قرأوه أو استعملوه أو وقفوه، ثم الجهة التي آل إليها، والمصدر الذي جاء منه، ثم العناصر المادية المتعلقة بصناعة المخطوط من ترتيب وتوريق وترقيم وغير ذلك. ثم تاريخ المجموعات ووضع القوائم والفهارس العلمية والكشافات وفهارس الفهارس، وغيرها[1] ».

ويذكر الباحث مجموعة من العناصر التي تدخل في إطار اهتمام الكوديكولوجي من مثل وصفات المخطوطات Notices des manuscrits، وفهارس المخطوطات المؤرخة، وفهارس النساخ، وفهارس نسخ المخطوطات، وفهرس المجمعين ومجموعات الكتب. وكل هاته الاهتمامات مازالت متأخرة عند العرب، في حين أنها قطعت أشواطا هامة عند الغرب.. وسوف نتبين حقيقة الكوديكولوجيا من خلال بعض القضايا: مسألة البحث أو التفتيش عن المخطوطات وتليها مسائل لاتقل عنها أهمية..

---

(1) دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي الدكتور أحمد شوقي بنبين،

مسألة البحث أو التفتيش عن المخطوطات

إنه الشرط الأساس عند أحمد شوقي بنبين، ودونه ستزيغ أبحاثنا ولاشك في متاهة الجرأة الذاتية البعيدة عن التروي والبحث الموضوعي، وكم باحث أفرغ جهده في التحقيق، وأهرق في سبيل ذلك العرق، وأحرق فتيل الوقت، حتى إذا ما انتهى من مهمته هاته تبين له أن خزانات كثرا تضم مخطوطات شبيهة بتلك التي اعتمدها، فيكون مرغما إذن على إعادة النظر في مولود جهده الذي هدهده دهر «طويل».

وضرورة التروي تسليم جدلي بأن إضاعة المخطوطات تأتي نتيجة عوامل متعددة، من ضمنها الاختلافات العقدية والمذهبية والإهمال. ويعطينا الباحث مثالا حيا لإفحامنا وإقناعنا بأن مهمة التحقيق تنشد أولا البحث عن المخطوطات، هذا المثال يتجلى في كتاب سيبويه الذي حققه عبد السلام هارون، والذي اعتمد فيه على أربع نسخ لا أكثر ولا أقل... وتأتي باحثة فرنسية بعده لتكشف عن سبع وسبعين نسخة من نفس الكتاب..

فماذا نقول نحن الذين دأبنا عن اعتماد تحقيق عبد السلام هارون وقت أن يرى النور تحقيق الباحثة الفرنسية؟. وهل سنجادل في البون الكبير الذي يفصل بين تحقيقها وتحقيق عبد السلام هارون؟ إننا لن نستطيع ذلك وإن أردنا لاستيفاء التحقيق الثاني الشروط الموضوعية للبحث، والتي وإلى جانب الكم الهائل من النسخ المعتمدة تدرأ مفهوم أقدم نسخة التقليدي

لتستبدله بما يسمى في التحقيق العلمي الحديث بالنسخة الأم Archétype.

مسألة النساخة والنساخ

تصنف هاته المسألة في خارجيات المتن بيد أنها هامة جدا في تفحص المخطوط القديم، خاصة ونحن نعلم أن الكتاب الواحد ينسخ مئات المرات بيد مئات النساخ، فمن سيضمن لنا سلامة ما ورد في الأصل (... إن التحليل السيكولوجي لعملية النساخة دعا أحد علماء الفيلولوجيا، وهو «دي روسو»، إلى تمييز أربع عمليات في فعل الناسخ المعاين هي ما يلي:

1- قراءة النص 2- حفظ النص 3- الإملاء الداخلي 4- تنفيذ عملية الكتابة.) ومادام أمر النسخ يمر من كل هاته العمليات فإن الناسخ لابد أن يخطئ، إذن فيجب علينا حسب أحمد شوقي أن نحتاط من النساخة، كما يجب علينا أن نحتاط من تاريخ النسخ، فكثيرة هي المخطوطات المؤرخة تأريخا قديما وهي منسوخة حديثا..

مسألة الوقف

وهي أيضا من اهتمامات أحمد شوقي بنبين وهي مبحث في علم المخطوطات هام، وما تناوله أحد في إطار كلي كما هي بحث قبله، فقد نقش

عن الجذور التاريخية لظاهرة الوقف، وتتبعها حتى تفتحت بالعرف على الكتب من لدن الفقهاء، ثم استوعبت كل ضروب الكتب. وقدم نموذجا «وقفية لابن خلدون» ليستخلص منه بناء الوقفية التي تنطلق من ذكر الصيغة عند ابن خلدون (وقف وحبس وسبل وأبد وحرم وتصدق)، ثم اسم الواقف، فذكر الشيء الموقوف، ثم الجهة الموقوف عليها، والشروط التي يشترطها الواقف، والغاية التي من أجلها تم الوقف، ثم أخيرا الإشهاد.. فدراسة الوقفيات وباستيفائها للعمل الببليوتيكونومي المتجلي في حصرها في كشاف ببليوغرافي تفيد في أمرين هامين:

- إثبات تاريخ النصوص المؤرخة وتحديد تاريخ غير المؤرخة منها..

- الحسم في الجانب الباليوغرافي (الخطي) وعبر ذلك يمكن اكتشاف مؤلف مخطوط ظل مجهولا بمقابلة خط وقفية له عليها اسمه بكتابة المخطوط.. والغاية من كل هذا هي خدمة ما يسمى بتاريخ النصوص الذي هو خطوة هامة في التحقيق العلمي..

مسألة القيم ووظيفته

وهاته مسألة قريبة أيضا من تاريخ الكتاب المخطوط إذا علمنا المهام المنوطة بالقيم في تاريخنا القديم.. يخلص الباحث إلى أن القيم كان ينتمي عموما إلى جمهور المتضلعين في العلم واللغة والأدب. وفي هذا الصدد

يعتقد البعض أن ابن النديم صاحب كتاب الفهرست كان أمينا على خزانة بيت الحكمة.. وأيا كان الأمر فإن الأساس عندنا هو وظيفة القيم التي ستصقل لنا صفحة جديدة في تاريخ الموروث الثقافي، يقول أحمد شوقي بنبين: (.. الخزانة القديمة كان يتولى أمرها أمين واحد ويمارس بنفسه جميع العمليات المكتبية الأساسية التي يجمعها القدماء في كلمة «ضبط» وتعني التنظيم الشامل لمحتويات الخزانة)[1] ويعد منها مجموعة من الوظائف أهمها:

- تصنيف الخزانة تصنيفا موضوعيا وترتيبها.
- وضع فهارس تعكس التصنيف المطبق في الخزانة.
- اقتناء الكتب التي تبدو ضرورية للمؤسسة العلمية.
- التربية والتعليم.
- تصحيح الكتب، وتقييد الفوائد والهوامش فيها.
- نسخ المخطوطات باليد..
- الإعارة وتحوز الكتب المهداة والموصى بها للخزانة.

ولنا بعد إظهار الوظائف أن نتساءل مرة أخرى عن جدوى الاهتمام بالقيم ونحن بصدد الاهتمام بالمادة التراثية المنقولة إلينا عبر الأجيال المتوالية...

(1) دراسات في علم المخطوطات ص: 54.

مسألة التعقيبة

هاته مسألة بكر أدمجها الباحث ضمن قضايا الكوديكولوجي التي ليس من بد من أن يتناولها بالفحص والدراسة، وهي ضرب من الترقيم استعمله القدماء لترتيب المؤلفات. هذا ويذهب الباحث إلى أن أوربا (إسبانيا وإيطاليا) قد أفادت من العرب في استعمال نظام التعقيبة.. ويدعو في النهاية إلى ضرورة وضع الفهارس أو الكشافات لتحديد نظام هذا الترقيم، ومن خلال هاته الكشافات يستطيع الكوديكولوجي دراسة هاته التقنية وأنواع استعمالاتها.

ويتحدث الباحث عن قضايا أخرى لاتقل أهمية عما أوردناه من ظواهر جديرة بالاهتمام، من مثل تقنيات فهرسة المخطوطات العربية والتي يتقصى فيها الطرق المستخدمة من طرف القدماء والمحدثين لوصف المخطوط العربي وتنظيمه، ثم يوضح العلاقة الكائنة بين الفهرسة العلمية للمخطوط وعلم المخطوطات فتاريخ النصوص...

إن أحمد شوقي بنبين لايقف عند هذا الحد، بل يقترح الحلول الناجعة للتخلص من عشوائية البحث والتي تتلخص في نظره في أمرين اثنين:

I- العمل على إثارة اهتمام الطلبة الجامعيين لعلم المخطوطات وإدماجه ضمن البرامج الجامعية.

II- إنشاء معهد للبحث من وظائفه.

1. دراسة المخطوطات العربية يختص بها قسم من أقسام هذا المعهد يدعى قسم علم المخطوطات Codicologieوالفهرسة جزء من الكوديكولوجيا.

2. إنشاء قسم أو أقسام للاهتمام بمخطوطات اللغات الشرقية والسامية المرافقة للعربية كالفارسية، والتركية والعبرية، والسريانية. .

فعسى أن يكون صوت الرائد أحمد شوقي بنبين قد وصل إلى مسامع الباحثين في التحقيق العلمي أو في التراث بشكل عام لينهلوا من مستجدات الفكر العلمي الحديث...

علم المخطوطات:

حقل معرفي بكر في حاجة

إلى تراكمات

دافع الباحث المغربي أحمد شوقي بنبين عن إمكانية تأسيس «كوديكولوجيا» مرتبطة بالتراث العربي، وسبق لنا أن أوضحنا نسقه «الكوديكولوجي» في مقال خاص من خلال مؤلفه «دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي» إذ فحصنا مجموعة من المباحث الهامة في هذا الكتاب من مثل مسألة النساخة، ومسألة الوقف، ومسألة القيم ووظيفته، ومسألة التعقيبة.. وأنهينا ذلك بنزوعه إلى اقتراح حلول ناجعة لترسيخ هذا العلم.. وحبا في تعميق الخيوط المنمذجة لرؤيته، اختلفنا إلى بعض مصادر هذا العلم وحاولنا تلمس مدى تجاوب هاته المصادر مع نسيج رؤيته الداخلي..

إن علم المخطوطات حسب أحمد شوقي بنبين هو هذا العلم الذي يعنى أساسا بالزوايا المادية في المخطوط. ومعنى ذلك أنه علم لايدخل في اختصاصه ما ضم المخطوط في متنه من معلومات تاريخية، أو أدبية، أو

فكرية، أو ماشابه ذلك، ثم إنه علم لايهتم بالخطوط، ونوعيتها، وهندستها، وفنيتها.. فتلك ميادين لها علومها ومباحثها من مثل «الباليوغرافيا»، و«الكاليغرافيا». وإنما هو علم يهتم بالجوانب الصامتة في المخطوط، إنه يسائل الورق، ونوعيته، والملزمة، وأنواع ترقيماتها، والكراسة، ونظام التزويق، والزخرفة، وكيفيات طي الرق، والورق، إلخ من المباحث التي تخرج عن إطار الكتابة بوصفها شكلا أو بوصفها مضمونا..

واقع الساحة الثقافية

في كتاب «دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي»، وضمن ما نشره في الكتاب الذي تفضل بتنسيقه؛ «المخطوط العربي وعلم المخطوطات»، أوضح الباحث أحمد شوقي بنبين الفراغ المرعب الكائن بخصوص هذا المجال المعرفي باستثناء إسهامات بعض المستشرقين القلائل الذين تبقى إسهاماتهم غريبة عنا نظرا لاشتغالهم على مادة تراثية مختلفة نوعيا عن هاته التي نشتغل عليها نحن.. إن الميدان إذن فارغ من الأبحاث الفردية والأكاديمية التي من شأنها أن تسير به إلى الأمام من جهة، وتطرح تساؤلات على التراث الذي استأنسنا به منذ زمن من جهة ثانية. ولاعجب في ذلك ونحن نتعامل يوميا مع المئات من الكتب التي استقر رأينا على أنها محققة من طرف مختصين في التحقيق العلمي. ولم يتبادر إلى ذهننا

يوما الاستفسار عن نوعية هذا التحقيق، كما لم نشك في القيمة العلمية لهذه الكتب المطبوعة التي دأبنا على اعتمادها مصادر لانشك في جدواها. فالأمر إذن راجع إلى عدم اضطلاعنا على هذا العلم الجديد الذي أصبح له صدى كبير في الأوساط الغربية، بل إنه أصبح أب المعرفة. ولن يستطيع أحد أن يتعامل مع المخطوطات بأي طريقة من الطرق وهو يجهل «الكوديكولوجيا». لن نستطيع الآن أن نطمئن إلى علم المخطوطات في العالم العربي، ولن نستطيع أن نحدثه في لحظة وجيزة.. بل ليس من بد من الركون إلى ما وجد في الساحة الثقافية، وليس من بد من محاسبة هذا الذي نستأنس به في هاته الساحة. ثم لنا بعد ذلك أن نقوم ما نراه معوجا، ونهيب بهذا الإطار الذي قد ينسق مجموعة من العلوم، أوعلى الأقل يشعرها بحدودها.. ها هنا أذكر أنني سألت الأستاذ أحمد شوقي بنبين عن محتوى كتاب «المخطوط العربي وعلم المخطوطات» الذي تفضل بتنسيقه والإسهام بمقالة في ثناياه. وأبديت ملاحظة فحواها أن هذا الكتاب يزل عما سطر في عنوانه من أنه إسهام في «الكوديكولوجيا». بيد أنه أسرع إلى تدارك هاته الملاحظة، وبين لي أن الساحة الثقافية مازالت خلوا من الأبحاث في هذا الميدان، إذن فلا ضير علينا من أن نستأنس بميادين قريبة من «علم المخطوطات». فالمحاضرات التي ضمها هذا الكتاب والتي تصب في أغلبها على وجه الصواب في الباليوغرافيا (علم الخطوط) هي فقط تعويض عن هذا العجز بمشاركات قريبة من انشغالات «الكوديكولوجيا».

وهكذا فقد تحدث الجمع العلمي الذي حضره علماء أجانب لهم صدى في الأبحاث المخطوطية عن العلمين في مصب حديثهم عن «الكوديكولوجيا»، ولن نستطيع البتة اتهامهم بأنهم أخطأوا فهم «الكوديكولوجيا». وهكذا جاء الكتاب في حجم متوسط، وهو يعج بالمحاضرات التي تزكي هذا الذي ذهبنا إليه من مثل مقال للأستاذ محمد بنشريفة تحت عنوان «نظرة حول الخط الأندلسي»، ومقال لجورج عطية تحت عنوان «المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبة الكونغرس الأمريكي» وهو يتعرض في هذا البحث لفن الخط عند الشيخ حمد الله من خلال أجزاء من القرآن الكريم الموجود في مكتبة الكونغرس، ومقال للناجي الأمجد «الخط العربي والهوية المفقودة»، والذي نجد فيه سردا لخمسة أنواع من الخطوط، وهي كالتالي: الخط المبسوط، والخط المجوهر، والخط المسند أو الزمامي، والخط المشرقي، والخط الكوفي.. وبحث للأستاذ الحسين بوزينب تحت عنوان «لماذا كتبت عجمية الموريسكيين بحروف عربية».. إلخ. وهذا دليل على أن الندوة التي نسقها أحمد شوقي بنبين، ولضرورة ثقافية كمية، فتحت ذراعيها لاحتضان إسهامات من خارج الميدان.وفي صميم الطرح سألت الباحث بنبين هل يتفق مع ما جاء به «ليون جسان» من تصور لعلمية الكوديكولوجيا، إذ أظهر هذا الأخير في كتابه «تمهيد إلى الكوديكولوجيا» أن المعرفة العلمية، ولكي تستوفي حقيقتها، يجب أن يتوفر لها جانبا الكيف والكم. وهكذا ينتهي إلى أن «الكوديكولوجيا» ينقصها الكم، فهي

إذن لاترقى إلى مستوى المعرفة العملية الناضجة.. وحلل عنوان كتابه كما يلي: «الكوديكولوجيا» علم حديث مؤسس على الملاحظة المادية لعدد ضخم من الشواهد التي مازال أغلبها في حاجة إلى المعاينة.. ولكن عالم المخطوطات المغربي رفض هذا الحكم، وبين أن الكوديكولوجيا في أفقها العام أي في مظانها الأصلية علم يستوفي الشروط الكمية ودعاني إلى العودة إلى كتاب: Pour une histoire du livre manuscrit au moyen âge; Trois essais de Codicologie quantitative[1] الذي يظهر قوامة «الكوديكولوجيا» كميا، ومعنى هذا أن الباحث المغربي بنبين لايرى حرجا في استلهام الإطار النظري لعلم المخطوطات من مظانه الغربية وتوسيعه في تعالق مع طبيعة المخطوطات العربية. إنها طبيعة من نوع خاص، يجب استيعابها من خلال آراء المكلفين بالمخطوطات العربية والذين يتوفرون على زاد من ثقافة الآخر. وأين هم؟

إشكالات الإفادة من الآخر

سألته كيف يتسنى للباحث التصدي لإشكالية المصطلح بوصفها إحدى الإشكاليات التي تعوق المشتغل على المخطوطات العربية، والذي يريد أن يتزود بجهاز نظري غربي، فأظهر أنها مسألة عويصة يكفي فيها الاضطلاع على الجهاز النظري «للكوديكولوجيا» في الغرب، ولن يكفي فيها ملازمة

(1) Bozzolo (C) et Ornato (E).

المخطوطات العربية، وتبين معجمها، وتاريخها، بل هي تنشد تكوينا مزدوجا. وقدم لي نموذجا بهذا الخصوص إذ قال إن «جاك لومير» و«ليون جلسان» في كتابيهما حول علم المخطوطات يستعملان كلمة "Cahier" ، ولن نستطيع نحن أن نرصد مقابلا لهذه الكلمة التي لها مكانها في قاموس المخطوطات الغربية إلا إذا تعقبنا معجم المخطوطات العربية. أي أنه يجب أن ندرك المصطلح من خلال نوعية المخطوط، ونوعية الورق إلخ...وهكذا نجد في معجمنا المخطوطي مصطلح «الملزمة» وهي البديل العلمي لمصطلح "Cahier" وقس على ذلك في الحقل المعجمي الخاص بالمخطوطات العربية كله... بيد أنه يجب أن نذيل إثبات معجمة «الملزمة» مثلا بما يراد منها في المخطوطات العربية.

أعمال في إطار "الكوديكولوجيا" دون وعي بالميدان

أشار أحمد شوقي بنبين في كتابه «دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي» إلى أهمية الفهرسة بوصفها أول عمل يجب أداؤه قبل الخوض في مباحث الكوديكولوجيا.. بيد أن السؤال الذي يبقى عالقا هو: هل نعتبر الأعمال التي أنجزت في الفهرسة متناسقة ابستيمولوجيا مع الأعمال التي تليها في إطار علم المخطوطات، أم أنها إنجازات مستقلة وجوديا لأنها تختلف عن هذا العلم؟ وكيفما كان الجواب فإن الجهد الفهرسي

يبقى ضروريا لتقريب المادة المدروسة من الأبحاث المخطوطية.. وقد وقفت على بعض الأعمال الفهرسية التي تعتبر خطوة أولى في إطار الكوديكولوجيا، وأذكر هنا على سبيل المثال: «فهرسة مخطوطات خزانة ابن يوسف» للأستاذ الصديق بلعربي، وكتاب «الفهرسة الوصفية للمكتبات» للدكتور شعبان عبد العزيز خليفة، و«فهرس عناوين المخطوطات في مكتبة الدراسات» لمعديه بديعه يوسف عبد الرحمان، وفاتن عبد الصاحب، وحسين العزاوي، وكتاب «فهرست المخطوطات» لمؤلفه الدكتور عبد الفتاح محمل لحلو، وقد تضمن هذا الكتاب الأدب، والنقد، والبلاغة. ثم هناك كتاب آخر تضمن المصاحف والتجويد والقراءات، ثم كتاب ثالث تضمن التفسير وعلوم القرآن.. وكتاب «مخطوطات» لأسامة ناصر النقشبندي. و«فهرس مخطوطات دار الكتب القطرية» الذي أصدرته وزارة الأوقاف العامة في الموصل «من الجمهورية العراقية» لمؤلفه سالم عبد الرزاق أحمد، وغير هذا مما وضع من معاجم متعلقة بخزانات متعددة في سائر الوطن العربي.. وهذه بوادر طيبة لولا أنها تفتقد للوعي الوصفي الشامل الذي لايمكن أن يصدر إلا عن فكر يؤمن بأهمية الفهرسة وضرورة إيجادها لخدمة معرفة أخرى. ومع هذا تبقى الساحة فارغة تنشد جمعية مدعمة من لدن كل دولة وتقوم بفهرسة شاملة، ووضع «الكاتالوكات» المتعلقة بكل خزانة على حدة، وفهرس الفهارس إلخ.. وإذا لم يحصل هذا العمل البين فمن باب الفراغ أن نأمل تأسيس «كوديكولوجيا» مرتكزة على أسس علمية.. إضافة إلى هاته

الأعمال الفهرسية وجدنا بعض الإسهامات التي قد تؤدي خدمات جلى إلى مجالات «الكوديكولوجيا» من مثل كتاب صدر ضمن البرنامج العام للمعلومات واليونيسيست التابعين لليونسكو والمتعلق باستقصاء عن المعايير الوطنية الخاصة بالورق والحبر، وكتاب «الختم الديواني في السودان» لمؤلفه محمد ابراهيم ابي سليم، وكتاب «تاريخ وتقنية الكتاب والطبع» لمؤلفه برغات ريشتر، وكتاب «المخطوطات النقل والطبع والدلالة»، وهو مجموعة مداخلات لمجموعة من علماء المخطوطات. وكتاب «ملحمة الكتاب من النسخ إلى الطباعة» لمؤلفه هامان، وتبقى كتب أخرى تتطرق لمواضيع لها بعض التعالقات القريبة أو البعيدة من «الكوديكولوجيا» من مثل مؤلفات «الببليولوجيا»، ومؤلفات التوثيق، وعلم المستندات القديمة، وغير ذلك مما له قرب من موضوع «الكوديكولوجيا»، ولكن يبقى ميدان علم المخطوطات ذا طابع خاص من حيث معالجته للمواضيع المنضوية تحته، وانفتاح ذلك على قضاياه التي تتغيى بدون شك حقائق قد تغير التاريخ الثقافي والفكري لأمة من الأمم. إن تراثنا الذي نؤول إليه ونستقي منه زادنا ونعتز به بوصفه حقيقة «الأنا» لايخلو من سقطات كثار ناتجة عن هذا الإهمال للتناول المادي لوعاء المعرفة.. إننا إذن متحمسون ومتعطشون للنهل من غمار هذا النبع الجديد، ودونه سنفخر ببنايات ضاربة الجذور في أراض رملية.

هوية الكوديكولوجيا وعلاقتها بالعلوم الأخرى

أشار الباحث أحمد شوقي بنبين في كتابه «دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي» إلى اتجاهين في تقويم هوية الكوديكولوجيا؛ اتجاه الكوديكولوجيين الذين ينزعون إلى الاعتراف باستقلال الكوديكولوجيا بوصفها علما مستقلا autonome، واتجاه المفكرين خارج ميدان «الكوديكولوجيا» الذين لايرون بأسا من جعلها علما ثانويا تابعا لعلوم أخرى، ولقد أشار كل من «ليون جلسان» و«جاك لومير» إلى هاته الإشكالية وأفاضا فيها الحديث. وإن كان «ليون جلسان» قد نزع في كتابه «تمهيد..» إلى تبيان النقص الكمي الذي مازال يشين مسار هذا العلم، فلم يتحرج إذن من اعتبار كتابه مجرد «تمهيد» على أساس أن برعمها سيفعم لاحقا. وفي كتاب «مدخل إلى الكوديكولوجيا» لمؤلفه «جاك لومير» ألفيناه مشفوعا بصفحات طوال ملأى بالمصادر والمراجع المتعلقة بهذا العلم، فلا شك أن هاته الكتب ستكون قد أفادت من تاريخ العلم أو بالأحرى من سقطاته لتكون أفقا أكثر موضوعية وعلمية..

تبقى الكوديكولوجيا إذن هذا الحقل المعرفي الذي يتحاور مع حقول معرفية أخرى من مثل الانتروبولوجيا، والنقد الأدبي، والفلسفة، وعلم النفس الاجتماعي، وتاريخ الفكر إلخ.. فنحن ولضرورة فكرية محض كان علينا تخمين ظهور هذا العلم لأن الفضاء الفكري أوجد ساحته وميدانه..

وما عليه إذن إلا أن يتراكم كميا. ولا ضير علينا، إلى جوار هذا، من أن نتساءل عن فضاء منهجي ونظري قد نؤطر به «الكوديكولوجيا» لأن طبيعة التناول وكيفية استثمار النتائج تكشف عن «هوية ما» وجب أن تعلن ذاتها برانيا... إننا في إطار فكري عام لانجد تحرجا إذا تساءلنا عن علاقة «الكوديكولوجيا» مثلا بنظرية التلقي بوصفها إحدى مستجدات النقد الأدبي، وفي إطار منهجي خاص قد نعزف عن التركيب الذي يصبو إلى إظهار النتائج، إلى التحليل الذي يفحص نشاط الباحث في كل معطياته ويربط ذلك بما عن مؤاتيا من تيار فكري أو منزع مذهبي.. ها هنا نعلن صراحة أننا إنما نبحث عن فكرنا أفقيا، وما علينا حرج إن عزفنا عن حقل معرفي إلى آخر، لأن الذي يعنينا هو النسيج الداخلي الرابط بين الحقول المعرفية. فالكوديكولوجيا تتجاوز نطاقها إذا نزعت إلى دراسة ماهو خارج دلالة المتكلم مثلا، من مثل طبيعة البداية والنهاية، وفضاءات الصمت، والنبر، والتحشية، والاستطراد إلخ.. وقد نجد لها مكانا أيضا في مجالات أخرى لا من حيث هي علم مستقل، ولكن من حيث هي خبرة ذكائية ونشاط قياسي قد يساعدنا على التماس الحقائق من مظانها الأصلية.

قراءة ابستمولوجية في كتاب "من أجل تاريخ الكتاب المخطوط: ثلاث محاولات في الكوديكولوجيا الكمية"

كلما اقتربت المعرفة من الواقع أظهرت تمزقها ونسبيتها، واندرجت في إطار المعرفة العامة. وكلما تسامت عنه اندرجت في إطار البحث العلمي.. وهو ما نص عليه باشلار في جرد علمي للتمييز بين المعرفة العلمية والمعرفة العامة (... فالمعرفة العامة تجعل المسافة قريبة بين الفكر والواقع، أما المعرفة العلمية فإنها تفصل بينهما بالرجوع المستمر إلى التركيب العقلي، أي بالمحاولة المستمرة لإضفاء العقلانية على التجربة)[1]. وهكذا نود أن نقوم الكوديكولوجيا من خلال ما جد فيها من أبحاث.. والباحثون في هذا المجال لاينكصون عن ذكر علميتها، وفي مقابل ذلك لايلزمون أنفسهم بتبيان فحوى العلمية من خلال تسطير معطياتها الإجرائية. فالكتاب الذي بين

---

(1) ماهي الابستيمولوجيا؟ محمد وقيدي ص: 221.

أيدينا من أهم الكتب التي صنفت في هذا الباب وهو مرجع لعلماء المخطوطات ما في ذلك شك. غير أن تصفحه يكشف عن أن هناك تيارين تجاذباه، وما نستطيع القول إنه صنف في لامبالاة، لأن فلسفته سرعان ما كشف عنها المؤلفان من خلال تعريفهما لعلم المخطوطات.

التعريف

يرجع المؤلفان عدم الاهتمام بمسألة الملازم إلى أن الكوديكولوجيا ليست علما مستقلا، وإنما هي ميدان تابع للتاريخ. فعدم الاهتمام هذا (يتوضح بسهولة إذا اعتبرنا أن الكوديكولوجيا لم تظهر منذ أمد طويل إلا بوصفها ميدانا تابعا للتاريخ الأدبي، أو تاريخ الفن، أو تاريخ الكتابة. أما مهمتها الأساس - التي لايمكن نكرانها- فهي المساعدة على التأريخ الزمني والتحديد المكاني لإرجاع بعض الكتب المخطوطة إلى مجموعاتها الأصلية القديمة)[1]. ومن هنا ستصبح الكوديكولوجيا ميدانا أو مبحثا مساعدا لعلم أو مجال آخر.. وهاته الفكرة لا نعارضها البتة. فالتكاملية والنسقية خصيصتان جوهريتان للمعرفة العلمية (وهما من الصفات الحديثة التي تتميز بها فروع المعرفة العلمية، بعد أن تعددت مجالات اختصاصها، وتطلب الأمر نظرة كلية شاملة لمختلف ظواهر الكون والحياة، تذوب معها تلك

---

(1) يراجع Pour une histoire du livre manuscrit Trois essais de Codicologie quantitative - Carla Bozzolo et Ezio Ornato. page 125.

الحواجز الظاهرية بين فروع العلم المختلفة بحيث تحل العلوم المتداخلة والمتكاملة محل العلوم المتعددة والمنفصلة. بل إنها كلها يمكن أن تندرج في بناء نسقي واحد، بحيث يكون ترتيبها في ذلك النسق المتكامل ترتيبا قائما على وضع ما هو خاص من قوانين ومبادئ وفروض، تحت ما هو أعم منه) [1].

بيد أن السؤال الذي يبقى عالقا هو مدى استيفاء الكوديكولوجيا في ذاتها لمفهوم العلمية، في غياب عن تكاملها مع هذا المجال المعرفي أو ذاك.. نحن نريد أن نغض الطرف عن هذا الوجه من إجرائية الكوديكولوجيا، وإن كان وجها مجديا ونافعا، ونؤكد على خصيصاتها الداخلية، وهو الأمر الذي اقترب منه الباحثان في بعض المعطيات المخطوطية التي وقفا عليها وأخطآه في مجمل مباحث الكتاب...

معارف علمية عامة وابتعاد عن صياغة القوانين

في هذا الإطار تستوقفنا مجموعة من العناوين الرئيسة والفرعية التي تصب في مجرى واحد ألا وهو معرفة علاقة المخطوطات بالمجتمع والاقتصاد والتاريخ، فنعدد منها مثلا: رصد أثمنة الأوراق والمخطوطات، ورصد أثمنة النساخة، وارتفاع أثمنة المخطوطات، وارتفاع إنتاج الورق في القرن الخامس عشر، وأثمنة المخطوطات في القرن الرابع عشر والخامس عشر وعلاقتها

---

(1) يراجع: فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، أحمد فؤاد باشا، ص: 47.

بالثقافة إلخ..

وهكذا سيعمل الباحثان على تبين هاته الفضاءات. والعمل الذي ركباه إنما هو وصف محض لمجموعة من الحيثيات والخصائص التي ميزت إنتاج الكتاب المخطوط في العصور الوسطى. وهكذا يكلف صنع أو ثمن الكتاب المخطوط أثمنة مجموعة من المراحل من مثل ابتياع مادة المخطوط (رق أو ورق)، وأجرة النساخة، وأجرة التزيين والزخرفة. إن وحدة ثمن الورق هي الرزمة. وذهب المؤلفان إلى أن الرزمة الصغيرة تحتوي على 24 ورقة، ويمكن أن نصنع منها ست رباعيات أو أربع سداسيات أو ثلاث ثمانيات. وقد سجل الورق انخفاضات في الأثمان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر، وهو يقل عن ثمن الجلد بثلاث عشرة مرة. أما النساخة فثمنها يختلف بحسب مجموعة من العوامل من مثل أحجام الورق، وعدد السطور في كل ورقة أو صفحة ونوعية الكتابة وسمعة الناسخ. وثمن النساخة هو المكون الأهم في صنع المخطوط لأنه عمل مضن ومتعب، والمعدل الإجمالي للإنجاز الفردي اليومي هو 2,85 ورقة.

أما فيما يخص ارتفاع إنتاج الورق في القرن الخامس عشر فقد أدى مثلا إلى انخفاض نصيب إنتاج المخطوطات المصنوعة من الرق من 67٪ إلى نسبة 50٪ في الربع الثاني من القرن الخامس عشر، ثم انخفض بعد ذلك إلى نسبة 33٪ في الربع الثالث من هذا القرن.. وبعد هاته المعطيات التي لم نقدم منها إلا نزرا قليلا، أرهص الباحثان إلى وجوب ربطها بالسكان.

والثقافة، والاقتصاد، والمجتمع.. إن هذا التعالق الوطيد الذي تنوراه في إطار نظريتهما في المخطوطات هو ما يجعلنا حقيقة نتحدث عن مجموعة من المعطيات التاريخية الدالة، كما لو كنا نتحدث عن نظام من الأنظمة المتعددة التي يشتغل عليها العلم التاريخي، ولن يكون علما إلا بقدر ابتعاده عنها وتأسيسه لبنيان نظري محكم ومستقل.. وهما يوعزان إلى المشقة والعناء اللذين يعرقلان نسج هاته العلائق بين المجتمع وإحدى عناصر الفكر (إن إقامة العلاقة بين إنتاج الكتب والأحداث الكبرى المتمركزة حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي أمرا ليس يسيرا.. إن الوضوح قد يصاحب الجانب الديمغرافي من المسألة)[1]. ولم يكتفيا بربط المخطوط بوصفه مادة صماء بظروفه التاريخية، بل حللا كل المباحث الصادرة عنه بمنظور من هذا القبيل. ومن ذلك ربط أثمنة المخطوطات في القرن الرابع عشر والخامس عشر بالثقافة. فقد بلغ إنتاج الكتاب المخطوط القمة في القرن الثالث عشر، وانخفض في الإنتاج بنسبة 25٪ في القرن الموالي. أما القرن الخامس عشر فقد عرف فيه بشكل عام ازدهارا في إنتاج المخطوطات؛ إذ ارتفعت كمية الإنتاج بنسبة 30٪ حسب الإحصاءات. و(يمكن أن يعتبر الانخفاض الذي عرفه الانتاج ما بين 1350 و 1450 مشيرا لضرب من الجمود الثقافي، بل إنه ذبول للحياة الثقافية)[2]. فالباحثان إذن يطمحان إلى أن يجعلا من المخطوطات وجها من الأوجه الدالة في التاريخ. وهما يتغيان في نهاية المطاف التاريخ ورصد الأمكنة في إطار

(1) Ibid page 89.

(2) Ibid page 114.

هذا العلم الجديد الذي يسمى علم المخطوطات. ونحن نقول إن الوصول إلى حصيلة من هذا القبيل قد نركب من أجلها مسالك كثرا.. وقد نصل إلى التأريخ بواسطة علم الخطوط القديمة، كما أننا نتوخى التأريخ بدراسة المخطوطات دراسة جوانية باطنية كاشفة عن الأسباب، وناسجة مجموعة قوانين من خلال أكسيومات فرضية متعددة. ونتوخاه أيضا بدراسة المخطوطات على اعتبار أنها أيقونات دالة في التاريخ تنز بالدلالة انطلاقا من كل ملابساتها وظروفها، وفي محيط فكري واقتصادي واجتماعي وتاريخي عام. وهذا ما وصل إليه الباحثان في جهد فكري وتقصيات كبيرة للمخطوطات في مجموعاتها التليدة... نقول إذن إن أصول البحث الكوديكولوجي هي المخطوطات والفرضية في آن. وكل ذلك في إطار بناء نظري عام ومحكم يؤمن شرط التفاعل والتواصل مع هاته الظواهر المادية الإنسانية. والنتائج لن تكون البتة هي المجتمع في إطار منطقي محض، وإنما هي التأكيد على مجموعة المسلمات العلمية.. حتى نضمن للعلم تناسقه الداخلي وتجاوبه الجواني.. ورد الفعل الذي تظهره الذات المفكرة هو تبصر المعطيات المادية في مكانها الصحيح مجهزة بفكر ابستيمولوجي يشرع الابتعاد عن النفس، والهذيان التاريخي والاجتماعي[1].. وقد حاول الباحثان

---

(1) يحدد لالاند البحث الابستيمولوجي الذي نتبناه نحن في هذا التقويم كما يلي ((..) إنها بصفة جوهرية الدراسة النقدية للمبادئ أو الفرضيات والنتائج العلمية الهادفة إلى بيان أصلها المنطقي لا النفسي وقيمتها وأهميتها الموضوعية). ماهي الابستمولوجيا، محمد وقيدي، ص: 15.

أن يشعرا بوعيهما للفرضية بوصفها خطوة جوهرية في البحث العلمي، ولكن كان ذلك في إطار فكري عام يفتقد إلى النظرية الموجهة.. ومن ذلك إشكالات مازالت متمنعة عن التفكيك في هذا المضمار من مثل قضية طي الأوراق، وقضية قطع الأوراق المزدوجة.. وتحدثا عن هاته المسائل التي قد تعتبر بؤرا في إطار كوديكولوجي بحت، بعد أن حصرا المخطوطات التي أزمعا الاشتغال عليها في أربعة وسبعين مخطوطا؛ منها أربعة وأربعون بقطع الربع، وثلاثون مخطوطا بقطع النصف، وكلها محفوظة في الخزانة الوطنية في باريس. ومن خصوصياتها أنها متشابهة في الأحجام، وعلاماتها متجانسة، وأن أحجام الفرخات المتوسطة بقطع النصف أصغر من المخطوطات الجلدية بقطع الربع..

إرهاصات فرضية دون وعي نظري

عندما تصفح المحدثون في زمان الطباعة وبعده صحائف المخطوطات وملازمها عزعليهم أن يكشفوا عن كيفية طي أو قطع الأوراق. ومن أجل تحديد لحظة قطع الأوراق وضع الباحثان مجموعة من الفرضيات نذكر منها ما يلي:

1- تقطع أوراق الملزمة وتكدس قبل الصنع بعشوائية.

2- تقطع كمية الأوراق الكافية لصنع الملزمة. والأوراق المتقطعة تجمع بعد هذا في نظام من الأنظمة.

3- لاتقطع الأوراق قبل صنع الملازم.

وتوصلا إلى تأكيد الفرضية الثالثة، أي أن الأوراق لاتقطع قبل صنع الملازم. إلا أنهما يعيدان مجموعة من الفرضيات التي تساير في جوهرها الإشكالية المطروحة بيد أنها في النتيجة تنزاح بنوع من المرونة والليونة.

وهاته فرضيات أخرى:

1- تقطع الأوراق قبل كتابتها.

2- تقطع من كل ملزمة شطرها الأول ثم الثاني.

3- تقطع الأوراق في تواز مع كتابتها.

4- تكتب الأوراق قبل قطعها...

والفرضيات تبقى متوقفة على نشاط الناسخ. هنا قد يكون الاهتمام بالنساخة مبحثا مدعما ومساعدا لمجموعة من الفرضيات. فالناسخ هو الذي يختار (وحينما تظهر العلامات في الأوراق بشكل منتظم يمكن أن نخرج الفرضيات 2 و 3 و 4)[1].

وكما استعان الباحثان بهذا الإرهاص الفرضي لتوضيح بعض القضايا المخطوطية، فإنهما أيضا أو عزا إلى مسألة القوانين أو المعايير العلمية، ولكن في جانب هش وجزئي من المعالجة العلمية. وهو الأمر الذي سيبديانه مثلا بإزاء تقنية الترتيب في الكتاب المخطوط. فهما يتحدثان عن مجموعة من المعايير التي تجعلنا نعرف المخطوطات المرتبة ومن ذلك انفراد الأوراق، ورضوخ الكتاب إلى ضرب من النظام فمن المعايير الدالة على عدم انتظام

---

(1) Pour une histoire. page 154.

المخطوطات، العشوائية في ظهور العلامات، وبقاء بعض الصفحات خالية من الكتابة.. والقوانين التي نحبذها نحن ربما تختلف نوعيا عن هاته القوانين. ذلك لأن القوانين التي تنمذج العلم تأتي مباشرة بعد الفرضية التي ترتكز هي بدورها على الملاحظة العلمية.. وربما يكون قانون «غريغوري» خير نموذج مفحم في هذا الحقل. ونحن نريد قوانين من هذا القبيل تنسجم في نوع من الكلية والتجاوب الداخلي، وتبقى منفتحة لتشرع التفاعل مع الذات المفكرة بغية التماس ما هو أحسن وليس المثالي أو النموذجي.

ولعل هاته الفكرة الجوهرية التي تنص على تدخل الذات المفكرة، والتي استقيناها من النقد الأدبي تجد صداها في الابستيمولوجيا أيضا. وذلك حينما نعلم أن شروط الملاحظة العلمية هي أن تكون منظمة ومضبوطة وأن تكون موضوعية وبعيدة عن التخمين، وأن تكون دقيقة كما وكيفا، وينضاف إلى ذلك قدرة الملاحظ وكفاءته[1]...فالقدرة والكفاءة هما اللذان يدخلان الذات المفكرة في صنع الموضوع المدروس... وهذا ما سيجعلنا نتحدث عن منهج متشابك تتداخل فيه الإجراءات النصية مع الحوارية الخارجية الكائنة بين المخطوط والذات؛ المخطوط بوصفه مادة والذات بوصفها عقلا ينشر العقلانية والانسجام على المادة المدروسة...

(1) أسس التفكير العلمي في العلوم السلوكية – د. فاخر عاقل، ص: 86-87.

"كوديكولوجيا المخطوطات الرقية المكتوبة بخط أنسي"[×]

"لألبريت دورلز"[1]

هذا بحث في علم المخطوطات طريف تتبعت أبوابه سطرا سطرا، فراقني أنه يسهم في حل الإشكالية المطروحة بخصوص الكوديكولوجيا، تلك هي مسألة العلمية.. ما الكوديكولوجيا؟ وما علاقتها بالميادين المعرفية الأخرى خصوصا تلك التي تمسها من قريب من مثل التاريخ وتاريخ الفكر، والباليوغرافيا، والببليولوجيا، وعلم المستندات القديمة إلخ.. إنه إذن إشكال عويص، والتصدي له عمل وعر ينشد منطقا متمحصا يعي الحدود بين المجالات، ويدرأ التغافل. فكثيرون يدمجون بين المجالات عن غير قصد، ولعلنا ننطلق في الحديث عن الكوديكولوجيا من التحديد الذي استأنس به الباحثون بهذا الخصوص ذلك هو أن علم المخطوطات هو العلم الذي يعنى

(×) أنسية أو إنسانية لها علاقة بالنهضة الأوربية التي أعطت أهمية للإنسان وقيمه العقلية والوجدانية.

(1) Codicologie des manuscrits en écriture humanistique sur parchemin Albert derolez

بالجوانب المادية في المخطوط، يعاقر من المخطوطة تشكيلاتها الصناعية وينشد بنيتها الحرفية، ونحن نردف ذلك باللقب الذي شاع حول هذا العلم من كونه بحثا أثريا أو أركيولوجيا للكتاب المخطوط، وربما المطبوع أيضا.. فكما أن الجيولوجيا فضاء علمي يتوخى إعادة بناء تشكيلة الطبقات الأرضية، وتفحص الضروب المتعددة المكونة للتربة، فكذلك الكوديكولوجيا؛ بحث أركيولوجي يتوخى كشف الكيفية التي تشكل بها الكتاب المخطوط ولعل المركزين على هاته النقطة المركزية في علم المخطوطات إنما هم باحثون قلائل، وفتحوا الباب عن قصد لمسألة التركيب[1] لأن التركيب ينشد عقلنة الفرضيات أو القوانين المتوصل إليها في هذا العلم.. في هذا الإطار أهيب بقانون «غريغوري» الذي توصل إليه علماء متمسكون بالحفر في هذا المجال.. وأرى في علم المخطوطات في عموميته مجموعة قوانين علمية تخول لنا الحديث عن نظرية مفسرة[2].

أعود إلى كتاب «ألبيرت دورلز» فأقول إنه ساير الطرح الكمي في تنور هذا الميدان، وما فعل شيئا غير تعزيز التاريخ بماسة جديدة حيث تمسك بالتنقيب التعاقبي. وإن خلناه في البداية متعصبا لاستقلالية العلم وسيادته، فهو يفهم علم المخطوطات على أساس أنه بحث في تشكيل وتكوين الكراسات، وعنصر التسطير وعناصر أخرى مشابهة[3]. غير أنه ما

(1) Introduction à la codicologie Jacques Lemaire.

(2) صياغة قوانين علمية ثابتة هي معيار العلمية هنا.

(3) Codicologie des manuscrits en écriture humanistique page: 5.

يلبث أن يظهر رأيه الجوهري في علم المخطوطات[1] الذي لايميزه البتة عن التاريخ. (إن الكوديكولوجيا أو أركيولوجيا الكتاب المخطوط هي المجال التاريخي الذي يدرس الكتاب المخطوط بوصفه موضوعا ماديا أو بعبارة أحسن بوصفه وعاء للنصوص)[2]. إن علم المخطوطات لايتجاوز كونه، في نظر هذا الباحث، مجالا تاريخيا ضمن مجالات أخرى متعددة، وهو يدمجه في إطار التاريخ الثقافي، لأن النصوص حتى وإن لم تكن موضوعا للدراسة فهي وليدة شكل الكتاب. إذن فإن الباحث يربط المسببات بالأسباب في إطار كلي دلالي كما لو أننا نستشف منه منهجا سيميائيا يتنور المادة المكتوبة على أساس أنها بوثقة ترميزية يمكن أن تتفتق بالدلالة، ولكن في إطار كلي خالص. وهنا أود أن أقول إننا لسنا بإزاء شيء جديد قد نسميه علم المخطوطات / بقدر ما نحن بإزاء سيميوطيقا عامة ربما تنحدر من السيميوطيقا الأمريكية التي تستنطق كل كائن حتى عالم النبات والحيوان..والفكرة الأساس لدراسة من هذا القبيل مفادها أن الكتاب المخطوط أو المطبوع يتفاعل ويتطور مع الثقافات التي يتبلور فيها، وهذا الأمر لايقتصر على مضمونه، وإنما يتعدى ذلك إلى شكله أيضا.

ولعل المؤلف قد وعى أن البحث الكيفي سيسقطه في الشرك الذي أفلت منه عن غير قصد، فارتأى ركوب البحث الكمي لأنه في نظره من شأنه أن يموقع الكتاب في سياق إنتاج الكتب في عصره. ويمكن من تقدير

(1) اختلفت الآراء بين المستشرقين بخصوص هذا العلم خصوصا المفهوم.

(2) الكتاب السابق الذكر، ص: 7.

الخصائص الفردية للمخطوطات في زمان ومكان محددين. وهكذا لم ير بدأ من الاستعانة على إنجاز هذا البحث الكمي الذي يهدف إلى مساءلة مجموعات المخطوطات بما جد في عالم التكنولوجيا (ويجب من الآن أن نعود إلى العقل الإلكتروني من أجل أن نقوم بعمليات التصنيف والغربلة والحساب اللازمة، بيد أنه من الواضح أن الدراسة الكمية أو استعمال العقل الالكتروني ليسا هدفا في ذاتهما، ولكنهما لايشكلان إلا وسيلة للحصول على معرفة صحيحة بالكتاب المخطوط بوصفه ظاهرة تاريخية»[1].

ولتحقيق هذا المبتغى استعان الباحث بمجموعة من الآليات أو البنود النظرية الهامة، ولزم نفسه بوجوب مراعاتها ومن ذلك ما يلي:

- يجب أن تكون مجموعة المخطوطات متجانسة (أي أن تكون من نفس النوع ومن نفس الفترة الزمنية، ومن نفس المنطقة).
- عدم إعطاء الاهتمام لمجموعة دون أخرى.
- يجب أن يكون عدد المخطوطات المكونة للمجموعة كبيرا.
- يجب أن يقوم الباحث بأوصاف المخطوطات شخصيا دون الرجوع إلى الفهارس التي غالبا ما تتخللها الأخطاء.
- يجب أن تبقى الدراسة قابلة للتبرير.
- تقتصر مجموعة المخطوطات على المخطوطات المؤرخة.

إن هاته الخطوات المنهجية المحددة ستفضي به إلى الحديث عن الموضوع المتغير ذلك هو المخطوطات الأنسية، وسيتحدث عنها بنوع من الدقة والرصد

(1) Ibid page 9.

الكمي، وهو إنما يسهم في تاريخ الثقافة الذي يسائل من المخطوطات الأنسية خصائصها التي تميزها عن المخطوطات الأخرى.. ولعل الأمر الجوهري المتغيى في هذا الباب هو الشيء الذي يميز المخطوطات الأنسية عن المخطوطات الأخرى.

وهكذا، وفي إطار التصدي لهذا الهم، سيدأب الكاتب على الحديث عن مجموعة من العناصر التي تسم المخطوطات موضوع البحث من مثل نوعية الكتابة الخاصة، والزخرفة المتقدمة، والبذخ الذي يظهر في هاته المخطوطات والمتمثل في الزخرفة التي تحتل صفحاتها، والنمنمة، وأيضا نوعية الرقوق المكونة منها، ونوعية اللغة المكتوبة بها والتي هي اللغة اللاتينية، ثم إنها كتبت في أغلبيتها على مادة الرق. إن رصد هاته الخصائص النوعية قد جاء نتيجة الحصر الجغرافي والتاريخي للمخطوطات الأنسية التي لا تكاد تتجاوز إيطاليا جغرافيا، ولاتكاد تتجاوز القرن الخامس عشر تاريخيا.

شروط إنتاج المخطوطات "الإنسانية" في إيطاليا

في هاته النقطة بالضبط سينبري المؤلف واصفا المحيط الثقافي والاجتماعي الذي أسهم بشكل أو بآخر في ظهور وتبلور المخطوطات المرادة، وهو إنما يجلو جانبا جوهريا في تبيان تاريخية الكوديكولوجيا. فبعد إظهاره أن الكتاب فى صناعته يمر بمراحل جوهرية من مثل تهيئ الملزمات،

والتسطير، والكتابة، والزخرفة، والتزيين، وجمع الملزمات، والتجليد.. وحيث إن الباحث سيهتم بالعناصر المرتبطة بالناسخ فقد انبرى متحدثا عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لهذا الأخير. وهكذا كان النساخ عمالا مستقلين سواء كانوا محترفين لهاته المهنة، أو مشتغلين في مجالات أخرى كالقضاء أو الكنيسة إلخ، ثم إن هناك نساخا غير محترفين تعاطوا لهاته المهنة حبا في ذلك أو بقصد الترفيه..

ومن أجل تسهيل البحث في المخطوطات يتوخى الباحث القيام بإحصاءات المخطوطات المفهرسة المذكور فيها التاريخ والناسخ والمكان، أو التي يذكر فيها شيء من هذا القبيل.

تشكيل الملازم

لقد اختار الباحث عينة البحث من مائتين وألف مخطوطة أنسية ولاحظ أنها في مجملها ترضخ لقاعدة «غريغوري»[1]. أما المزدوجات المشكلة للكراسات فهي مكونة بشكل يجعل أول صفحة وآخرها يمثلان الجهة السفلى للرق والحالة موجودة في 1195 مخطوطة 98,7٪. وهناك خمس مخطوطات فقط هي التي تبدأ ملزماتها بجانب الشعر. والحال أن هناك ثقافات أخرى

(1) قاعدة التقابل أي أن جهتي الخطوط التقابلتين يكونان في نفس الخاصية فهما يشكلان الواجهة العليا أو السفلى.

اعتمدت ما يتناقض مع ذلك يقول مثلا: (وفيما يخص مرحلة العصور الوسطى القديمة والعصر «الكارولانجي»، فإنه على النقيض من ذلك نجد أن الجهة العليا هي بشكل عام الصفحة الأولى التي يبدأ بها المخطوط)[1] ويردف الباحث هذا الأمر بمحاولة تفحص خارجي لوجود هاته الظاهرة، أنه يتساءل ما إذا كان هذا الاستعمال الإيطالي قد تأثر بالثقافة البيزنطية أو هناك أسباب أخرى لاختيار الجهة السفلى بوصفها الجهة الأولى للمخطوط وفي نفس السياق طرح الباحث السؤال أيضا عن سبب هيمنة الخماسية في أغلب المراكز[2] دون غيرها من الأنواع العديدة للملزمات. هاته الأنواع الأخرى عددها نزر، فهناك فقط مخطوط مكون من ثنائية، وسبعة مخطوطات مكونة من سداسيات. ويعود هذا الشكل إلى ظهور الرق الذي هو غاية في الرقة أثناء القرن الثالث عشر، وهناك سبعة عشر مخطوطا مختلطة من الرباعيات والخماسيات.

أنظمة الترقيم

في هذا الإطار يتحدث الباحث عن صنوف متعددة من الترقيمات التي استعملها النساخ في العصور الوسطى. فالنساخ في هاته العصور قد

(1) CF, op,cit page 34.

(2) الخماسية تطلق على الملزمة التي تكونت من خمس طيات، وهناك الثنائية، والثلاثية، والرباعية، والسداسية، إلخ.

استعملوا ضربين من الأنظمة لضبط نظام الأوراق في المخطوط، فالضرب الأول سمي: التوقيعات Synatures ، ويعود زمانيا إلى الفترات الرومانية الساحقة. وفي النظام الثاني المتأخر عن الأول رقمت الكراسات في أغلب الأحيان بالحروف الصغيرة. أما الأوراق داخل الملازم فرقمت بالأعداد الرومانية والعربية. وهذا ما سيفضي بالباحث إلى الحديث عن مسألة التعقيبة بوصفها أداة إيجابية في الترقيم، فالتعقيبات حسب ما يذهب إليه إنما هي تكرار أوائل الكلمات في ملزمة جديدة في أسفل آخر صفحة من الملزمة السابقة. وتعدادها كميا في متن بحثه يستوعب جماع المخطوطات، ما خلا 172 مخطوط بمعدل 14,3٪ من المتن التي تفتقد إلى نظام التعقيبة. ويمكن التمييز في مخطوطات القرن الخامس عشر بين تعقيبات عمودية نصادفها في كل أوربا، وتعقيبات أفقية خاصة بإيطاليا على الرغم من أن انتشارها قد تم في دول أوربية أخرى. وهكذا سيستعين الباحث بأرقام بيانية لتجلية هاته الحقيقة.

توزع التعقيبات كميا[1]:

التعقيبات العمودية:

1- في الوسط 181-15,1٪

2- موضوع في الأيمن 94-7,8٪

---

(1) بؤرة الكمية في التعامل مع المخطوطات يترتب عنها الابتعاد عن الصياغة النظرية للقوانين والاهتمام بالظواهر المبتذلة في الزمن والمكان.

3- في الخط الطويل الأيمن 29-2,4٪

4- في الهامش السفلي 247- 20,6٪

التعقيبات الأفقية

5- بين الخط الطويل المزدوج أو على مدى الخط الطويل المنفرد 418-34,8٪

6- في أيمن الخط الطويل المزدوج 25-2,1٪

7- على طول الطية 11-0,9٪

8- في الجهة المعاكسة 20-1,7٪

(وهكذا يمكننا الرسم أعلاه من أن نلاحظ أن التعقيبات العمودية في إيطاليا أكثر استعمالا من التعقيبات الأفقية)[1].

التسطير

أشكال التسطير: والتسطير مبحث هام في درس علم المخطوطات، لكن تنوره في هذا المضمار مقصد شاق ما عالج فيها الباحثون إلا قشوره الخارجية المندرجة في التاريخ. وراقني أن هناك باحثين قلالا تنبهوا إلى حقيقة

(1) CF, op, cit page.53.

التركيب في هذا الباب[1]، أو تجاوز الوصف السطحي الذي هو في جوهره رافد من روافد التاريخ الثقافي. ونحن لن نتغافل صيحات محمد أركون[2] الذي يدعو إلى ضرورة تناول التراث في كليته، أي أننا مدعوون إلى استنطاق ما كان صامتا. ولعل الرق لايقل قيمة عن الوشم أو العمران، وإذن فإن رؤية علم المخطوطات بهذا المنظور ليست أمرا جديدا بل هي امتداد للفكر في مناهجه الجديدة. ونحن نازعون إلى غير هذا.. إننا نازعون إلى استنطاق علمية الكوديكولوجيا وتبينها بوصفها علما، وليس بوصفها مبحثا. وهذا ما لا نجده عند «ألبيرت دورلز».. إنه في حديثه عن التسطير إنما يتوخى الوصف الظاهري والتسآل الغائي.. وقد علق غاية بسيطة على التسطير المخصصة للتأريخ والموضعة وهو غرض نفعي قريب ليس طبا بتبيان الكلية الجوانية / نحن لانقول: ندرس مباحث علم المخطوطات للتاريخ. ولسنا ضد التاريخ إنما التاريخ يستشف من العلم بوصفه كلا موحدا.. هكذا إذن سيتحدث الباحث عن مجموعة من المكونات في التسطير من مثل التقنيات المستعملة لرسمه، وبعض مظاهره، والعلاقات بينها إلخ..

(1) يدعو «فاليري ف يولوسين» إلى ضرورة النظر إلى هذا المبحث في علاقته مثلا بمقياس الصحيفة ومقياس الصفحة، ومسائل أخرى.
يراجع: المخطوط العربي وعلم المخطوطات. ص: 57 وما يليها.

(2) محمد أركون في مؤلفاته الأولى تبنى منهجا بنيويا يركز على الكلية في تناول التراث ونجم عنه محاورة الناطق والصامت. وهو قد أفاد أصلا من أساتذة المنهج في مجالات متعددة من مثل اللسنيات والأنتربولوجيا والفلسفة وعلم النفس إلخ...

وكل ذلك في فضاء وصفي خالص.. ويتحدث أولا عن أن صفحات المخطوط الوسيطي إنما تظهر في أغلب الأحيان بوصفها تركيبا بين الخطوط الأفقية، والخطوط العمودية المصنوعة، أساسا لتوجيه الكتابة، وتحديد الفضاء الذي يجب أن تغطيه هاته الأخيرة. ويميز بين الصورة الأصل لشكل التسطير، والخطوط الهامشية. و(تضم الصورة الأصل الخطوط الوحيدة المخصصة لتوجيه وتحديد كتابة النص. بينما تتخصص الخطوط الهامشية عامة بتحديد وتوجيه الأجزاء الخارج نصية من مثل العناوين، والترقيم، والملحوظات الهامشية، والحواشي)[1]. والشكل المفضل في التسطير هو الخطوط الطويلة يقول: (ومن المعروف جدا أن المخطوط «الغوطي» فضل فيه أن يوضع الكتب ذات الأحجام الصغيرة، في حين أن المخطوط الإنساني قد اتقى ما أمكنه ذلك هذا الترتيب، واختار شكل الخطوط الطويلة حتى وإن تعلق الأمر بالأحجام الكبيرة[2]).

ويمثل ذلك بالشكل التالي:

مخطوطات ذات سطور طويلة 1149 - 95,7٪.

مخطوطات ذات عمودين 48-4,0٪.

تقنيات التسطير:

وأهم التقنيات كما يقف عليها الباحث للتسطير قد عرفت منذ أمد بعيد، (فقد استعمل المنحت أولا إلى غاية القرن 12م، واستعمل رصاص

(1) CF, op. cit, page 68.

(2) Ibid, page 68.

الأقلام ابتداء من القرن 12 إلى نهاية العصور الوسطى، وتصادف ذلك مع الريشة والحبر اللذين ظهرا انطلاقا من القرن 13 أو بعد ذلك بقليل)[1].

أما المخطوطات الإنسانية فقد استعملت فيها الطرق الثلاثة كلها، والتقنيات المستعملة لذلك تقسم إلى اثنين:

1- تقنيات ناتئة، عن طريقها نستطيع تسطير وجهي الرق دفعة واحدة. والتسطير الناتئ يستعمل عادة بالمنحت. وغالبا ما تستعمل هاته التقنية على الجهة العليا من الرق.. ونجد في بعض الأحيان تقنية واحدة وضعت لتسطير مجموعة من المزدوجات دفعة واحدة وذلك بوضعها الواحدة تلو الأخرى.

2- تقنيات بالألوان: وهي تقنيات انتشرت في كل أوربا في العصور الوسطى المتأخرة، واعتبر شكل التسطير في الكتاب الغوطي جزءا من الزخرفة، وخاصة ما استعمل بالمداد الملون.

إننا في النهاية نتأكد مما أفصحنا عنه في البداية من أن الباحث إنما تغيى بعدا معينا في المخطوطات. والبحوث في هذا المجال كثر لاتكاد تنفد، إنما تختلف من جهة البعد النظري أو النسيج الرؤيوي الذي ينطلق منه الباحث. فإن انطلق الباحث من فلسفة معاقرة الخطوط في قوانينها العديدة واستعمالاتها التليدة كان البحث بالبيوغرافيا، وإن انطلق من فلسفة هادفة إلى مساءلة المادة المخطوطية في أبعادها الأركيولوجية، وفي نسيجها التقني الذي يعد معيارا نؤول إليه في لحظات البحث، عد البحث كوديكولوجيا

---

(1) Ibid, page 70-71.

وهكذا دواليك.. إلا أنني أركز على البعد الابستمولوجي للعلم ولست ميتافيزيقيا يبحث عن العلل الغيبية، إنما أنا ميتافيزيقي يبحث عن العلل الجوانية أي الداخلية في نسيج العلم. أريد أن نجمع رزمة قوانين نحتكم إليها كلما عز علينا الحسم في قضية من نوع كوديكولوجي..

فضاء الكوديكولوجيا بين التاريخ والفهرسة عند أحمد شوقي بنبين

عندما تحدث «جاك لومير» في مؤلفه الهام «مدخل إلى الكوديكولوجيا» عن عنصر النساخة درأ كل أمر متعالق بعلم الخطوط القديمة. بيد أنه لاحظ أن هناك أشياء من هذا العلم لايجد الكوديكولوجي عنها مفرا[1]، وقد أوعزنا إلى هذا الأمر بضرورة التسلح بالمعرفة الابستيمولوجية حتى نتبين الألوان التي تكتسيها العلوم بمجرد الحديث عن العلم الكوديكولوجي البحت..

وقدعبر لنا الباحث المغربي أحمد شوقي بنبين عن نموذج واضح عن هذا الذي نذهب إليه حينما تجاوز في حديثه عن الكوديكولوجيا هذا المجال الضيق إلى الفهرسة والتاريخ وعلوم أخرى...

إن الكوديكولوجيا، التي يعرفها بأنها علم يهدف إلى دراسة كل ما هو مكتوب في الهوامش من شروح، وتصحيحات، وما إلى ذلك من معلومات عن الأشخاص الذين تملكوا المخطوط، أونسخوه، أو قرأوه، أواستعملوه، أو وقفوه. ثم الجهة التي آل إليها، والمصدر الذي جاء منه، ثم العناصر المادية

---

(1) Introduction à la codicologie Jacques lemaire P. 151.

المتعلقة بصناعة المخطوط من ترتيب، وتوريق، وترقيم، وغير ذلك.

ثم تاريخ المجموعات، ووضع القوائم، والفهارس العلمية، والكشافات، وفهارس الفهارس، وغيرها[1]. تبقى حسب هذا التعريف، منفتحة على ميادين معرفية لايفتأ يتحدث عنها في أحايين كثيرة نقتصر منها على ما يلي:

التاريخ

صنف أحمد شوقي بنبين كتابا في تاريخ الخزانات والمجموعات في المغرب عنوانه: Histoire des bibliothèques au Maroc. وهذا الكتاب نعتبره، حسب تعريفه للكوديكولوجيا الذي أفصح عنه في كتابه «دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي»، امتدادا لعلم المخطوطات لكونه يتقصى المجموعات في التاريخ الثقافي. وقد تنبه أحمد شوقي بنبين إلى أن فضاء تاريخ الخزانات ليس كله بابا كوديكولوجيا، وإنما فيه أشياء جديرة بأن تدرج في هذا الباب. وهكذا وبعدما يتحدث في الجزء الأول من هذا الكتاب عن الخزانات في التاريخ الثقافي في المغرب منذ مجيئ الإسلام إلى اليوم، من حيث تكونها، وتطورها، ورسم تغيراتها، فإنه يتفرغ في الفصل الثاني لدراسة هاته الخزانات ومحتوياتها عبر التاريخ. ومن هنا فإنه سيثير مسائل

(1) دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي أحمد شوقي بنبين ص: 13 وما يليها.

بوبها أصلا في علم المخطوطات من مثل الوقف، والوراقة، ومسألة الكتابة، إلخ... فهو ينطلق في حديثه مثلا عن الوقف من مسألة اختلاف آراء الفقهاء بخصوصه. وينتهي بالحديث عن إسهام الوقف في ملء مجموعة من الخزانات في المغرب في نهاية القرن الثالث عشر، وبداية القرن الرابع عشر، وذلك، نظرا لتعدد هاته الظاهرة الخيرية التي استوعبت الوقف الملكي، والوقف الخاص، والوقف الاسترعائي، والوقف المعقب، والوقف على أرواح الموتى.. ويتحدث عن طبيعة الكتب المحبسة ليخلص إلى أن القرآن هو أهم كتاب يصلح لأن يكون محبسا عند المغاربة والمسلمين عامة، وبعد القرآن تأتي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي المرتبة الثالثة تأتي كتب النحو، والأدب، واللغة، وكتب الشروح، والحواشي. والوقف حسب ما توصل إليه الباحث أشكال متعددة، من الوقفية الكاملة إلى الوقفية المختصرة. والوقفية الكاملة تضم صيغة الوقف، واسم المحبس، واسم الخزانة، وشروط الوقف، والصيغ المحظورة، وتاريخ الوقفية، وتوقيع العدول.. فهاته المعطيات هي ولاشك بيت القصيد بالنسبة للباحث، لأنها تسهم في تأريخ وموضعة المخطوط بوصفه مادة.. ويتعامل شوقي بنبين مع ظواهر أخرى بنفس الطريقة، وذلك من مثل الوراقة، والنساخة. فهو ينقش عن المعطيات الأولية لهاته الظواهر، والمرتبطة أصلا بالنشأة؛ فيعلن أنه ابتداء من القرن الثالث الهجري أصبح الناس يحترفون النساخة في الثقافة العربية. ثم أوسع في الحديث عن ضروبها فشدته النساخة الجماعية التي امتد أصلها إلى الإغريق

تحت اسم «پاسيا»، ودخلت إلى أوربا من خلال الجامعة منذ بداية القرن 13م. ويذكر الباحث أن هذا الضرب من النساخة ارتبط في الثقافة المغربية بمؤسسة الزاوية. ولم تكن المخطوطات المنسوخة بالمغرب مزودة بالتصفيح أو الترقيم على غرار المشارقة وكانوا يستعملون فقط التعقيبة...

وعلى الرغم من أن هاته المباحث وغيرها هي مباحث تاريخية، إلا أنها ضرورية لتوضيح مجموعة من المعطيات الهامة المرتبطة بوعاء المعرفة الذي هو الكتاب المخطوط[1].

الفهرسة

على الرغم من أن الفهرسة ميدان علمي مستقل، فإنها، تسهم بدورها في معاينة معطيات جديدة في المخطوط. وكما سبق أن أشرنا في التعريف الذي قدمه بنبين لعلم المخطوطات، فالفهرسة لبنة جوهرية في إمكانية وجود علم يعنى بالجوانب المادية في المخطوط.

ومن هنا يدعو أحمد شوقي بنبين إلى ضرورة وضع الكشافات وقوائم المخطوطات، فهذا العمل حسب تعبيره «مهمة عالم المخطوطات الأولى والأساسية، ولايستغنى عنها إلا بعد أن توضع فهارس علمية مبنية على قواعد ثابتة». ثم ينص على وضع فهارس الفهارس. ويعتبر أن الغرب قد

(1) Histoire des bibliothèques au Maroc, Ahmed-Chouqui Binebine.

خطا خطوات كبيرة في هذا المجال بخلاف العرب الذين مازالوا بحاجة إلى تضافر الجهود وفهرسة مالم يفهرس. وفي المرحلة الثالثة ينشد وصفات المخطوطات وهي تعنى «الوصف الذي يخصص لمخطوط معين في دورية أو كتاب كأن يصف الناشر المخطوطة التي حققها...»[1].

ونظرا لأن عالم المخطوطات ينشد تبين ما إذا كانت المخطوطة مؤرخة أم لا، فإن الباحث المغربي يدعو إلى ضرورة وضع فهارس المخطوطات المؤرخة (إن التأريخ الدقيق أو التقريبي للمخطوطات يفيد الكوديكولوجيين وعلماء الفيلولوجيا خاصة من ناحيتين، أولهما: يمكن من إعطاء قواعد متينة لتاريخ النصوص، ثانيهما يساعد على تقدم الدراسات الباليوغرافية المحضة[2]) وإلى جانب هاته الضروب من الفهارس، يدعو إلى ضروب أخرى لاتقل أهمية عنها من مثل فهارس النساخ، وفهارس نسخ المخطوطات، وفهرس المجمعين ومجموعات الكتب الذي يبحث عن الأيادي التي تناولت المخطوط، ومسألة تنقله من مكان إلى آخر..[3].

وأخيرا وحينما نستأنس بأن علم المخطوطات إنما هو علم أثري، أي علم يعنى بالجوانب المادية في المخطوط، يعاقر من المخطوطة تشكيلتها الصناعية، فنحن نعتبر ذلك قاعدة لاتبعدنا عن الإفادة من العلوم الأخرى، إذ

---

(1) دراسات في علم المخطوطات بنبين ص: 17.

(2) المرجع نفسه، ص: 18.

(3) يدعو أحمد شوقي بنبين أيضا في الكتاب الذي نسقه تحت عنوان «المخطوط العربي وعلم المخطوطات» إلى أن الفهرسة هي عمل الكوديكولوجي الأول، ص: 33.

لاتجد الكوديكولوجيا في حقيقتها هاته بدا من أن تفيد من التاريخ أو الفهرسة والتحقيق العلمي والباليوغرافيا إلخ... إن أحمد شوقي بنبين إنما أراد أن يوقع هذا التآلف بسبره لأغوار علوم أخرى في حضن الكوديكولوجيا.

مبحث التجليد في الكوديكولوجيا

الكتابة في التجليد في الثقافات الإنسانية قليلة نظرا لأن الذي كان يراد من التجليد هو بعده الإجرائي.. وما كان المداد يسيل في مباحث مادية من هذا القبيل إلا نادرا.. نعم لقد وجدت فلتات في هذا الباب بيد أن مبتغاها كان تعليميا محضا.

ونحن ننظر إلى التجليد من منظور علم المخطوطات ننطلق عمليا من مسلمات مخالفة، ونتغيى نتائج أخرى.. ولاشك أن التجليد يدخل بنظرة كوديكولوجية في إطار الصناعة المادية للمخطوط، أي أنه مبحث مادي يصح أن نصنفه في فضاء الحفريات التقنية.. إن المعالجة المادية للمخطوط تسائل هذا الوعاء المادي الأصم الذي غالبا ما رغبت عنه الأبحاث القديمة لتهتم فقط بالجانب المعلوماتي في الكوديكس Codex. وحيث إنها كذلك، فإن التجليد يعتبر لبنة جوهرية فيها. ومن هنا فإن الحديث عنه هو رافد كوديكولوجي صميم، مع العلم أن ما يعنينا من التجليد ليس هو بعده التاريخي الصميم، وإنما هو بعده التقني.. وقد وقفت على كتابين يعدان لبنتين جوهريتين في تعلم صناعة التجليد فأعجبت بهما أيما إعجاب، لأنهما رغبا عن الرصد

التاريخي لظاهرة التجليد. أو التسفير بالتعبير المغربي، وانصبا على تحليل ووصف مكونات التسفير. فأما أحدهما فهو كتاب «صناعة تسفير الكتب وحل الذهب» للفقيه أبي العباس أحمد بن محمد السفياني رحمه الله. وأما الآخر فهو كتاب «التيسير في صناعة التسفير» للشيخ بكر بن إبراهيم الإشبيلي. ففي الكتاب الأول يصدر السفياني حديثه عن التجليد بالحديث عن صناعة الدفف.. وهكذا فالدفف حسب تعريف هذا العالم هي ألواح من الكاغد تكسى بالجلد على الكتاب. وسبيل صناعة الدفة أن نأخذ «الكاغط» وندهن الورقة منه بالنشا (مادة تلصق)، ونضعها وندهن ورقة أخرى وثالثة مع أننا نضع الوجه المدهون من الورقة الأولى على الوجه المدهون من الورقة الثانية. وندهن ورقة رابعة ونلصق الوجه المدهون من الورقة الثالثة على الوجه المدهون من الورقة الرابعة. وبعد عملية الدلك والتمديد للأوراق الملصقة نأخذ الورقتين الملصقتين الأوليين ونلصقهما بالورقتين الملصقتين التاليتين. ونأخذ أوراقا أخرى ونفعل بها ما فعلنا بالأولى حتى تلتقي الأوراق أوراقا أخرى ونفعل بها ما فعلنا بالأولى حتى تلتقي الأوراق كلها «ثنتين ثنتين». ويدعو السفياني بعد ذلك إلى ضرورة وضعها في مكان حار.. أما عن عدد الأوراق المزدوجة الملصقة التي يمكن أن يصنع منها اللوح فلم يضع المؤلف حدا معينا لذلك، وترك الأمر إلى رغبة الصانع. فإن أراد الترقيق اكتفى بأوراق قلال، وإن نحا إلى عكس ذلك أكثر من الأوراق.. وينتقل السفياني بعد حديثه المسهب عن صناعة الدفف إلى

الحديث عن كيفية حزم كراريس الكتاب، فيذهب في البداية إلى ضرورة جمع الكراريس ولفها في رق بال، وبعد ذلك يحزم الرق على الكتاب ويدق على حجرة ملساء، مع وجوب الضرب وجمع الكراريس كلها مركوزة على رؤوسها. وبعد ذلك يرسم الصانع خطين بالمداد في موضوع تحزيم الكتاب، وتدخل الإبرة بالخيط بالضبط في النقطة المرشومة بالمداد مع وجوب أن يكون الخيط الذي يحزم به رقيقا صحيحا. وإذا كانت الكراريس كثيرة، وظهر غلظ في موضع الخياطة فيضرب على موضع الخيط حتى يسكن ما غلظ. وإذا تساوت الكراريس يجعل في أصولها النشا، ويضغط عليها حتى نزيل ما فضل من النشا، ويوضع بعد ذلك جناحان من الجلد اللين يربطان إلى الدفتين، ونضع ثلاث نقط من النشا على كل جناح أو أربعا أو خمسا على حسب كبر الكتاب أو صغره وتجعل عليه الدفة. وبعد هاته المراحل تأتي المرحلة الثالثة عند السفياني تلك هي المتعلقة بنسج البرشمان، وذلك بأن نحضر الصمغ العربي المحلول بالماء، ونجعل منه شيئا على رؤوس الكراريس في طرف التقصيص تحت السير الذي تنسج عليه البرشمان، والسير يكون من جلد مدبوغ قد طلي بالصمغ العربي، فإذا يبس الصمغ الذي جعلته على رأس الكتاب «فريقه بريقك» حسب تعبير هذا المؤلف. ويريد أن نجعل عليه شيئا من اللعاب حتى نيسر إلصاقه ونضع السير على الصمغ فيلتصقان معا، ونربط ذلك بالإبرة بعد ذلك.. وبعد هاته الأبواب الهامة في التجليد يتحدث السفياني عن مباحث أخرى مساعدة، وليست صميمية في هاته الصناعة من

مثل صفة حل الذهب، وصفة صبغ الجلد بنفسج، وصفة عمل الترنجة من الجلد للتسفير أي زخرفة وجه الدفف بأن نأخذ ورقة ونرشمها بالرسم الذي نتغياه، ترنجة أو نوارة أو توريق..

أما الكتاب الآخر الذي نوهت به في هذا الباب، والذي هو كتاب «التيسير في صناعة التسفير» فيستهله المؤلف الشيخ بكر بن ابراهيم الإشبيلي بباب يتحدث فيه عن كل الأدوات التي يحتاجها المجلد. وهكذا يحتاج المسفر من الماعون الذي لابد منه إلى المقراض، والمقدة،. والملزم، وحجر المسن، وحديدة قوية مهيئة لشد الملزم وحله، ويحتاج أيضا إلى سكين للتسوية أو مقدة عند أهل المشرق، ومنشار، ومملسة ، ومضلف، ومثقب، والمطرقة، والمقطع، والضابط وغير ذلك.. وبعد ذلك يتحدث هذا الشيخ عن مسألة التحزيم ويتفق في الأبعاد الكلية لهاته الصناعة مع السفياني. وسبيل الصانع في ذلك أن يعدل الأسطار أولا، ثم يخط خطين بشيء يؤثر في قفا الكتاب أو المصحف. ويخزم بعد هذا على تلك الخطوط التي خطوها مع أنه يجب أن يكون التخزيم راخيا، فإذا كان الكتاب كله أزواجا دون مكرس، وكان رقا لا كاغدا فإن الصانع يخزمه بالحرير لأن الحرير ليس له جسم، وبالتالي إذا انضم في الملزم عند التقفية لم يظهر فيه امتلاء، أما إذا كان الكتاب مخزما بالخيط يظهر فيه الامتلاء ويكون قبيحا. وبعد التخزيم يتحدث الإشبيلي عن التقفية. وحكمها أن يشد السفر في الملزم ثم ترفع الكراريس بحديدة، وهذا ما جعله يدعو الى أن يكون التخزيم راخيا. وبعد

أن ترفع الكراريس يقبب القفا، وهذا أصل في التقفية أي التقبيب، فإذا كان قفا السفر مسطحا فإنه يفرق صدر الكتاب ويتجوف قفاه. أما إذا كان مقببا فيبرز منه ما تقبب، ويبقى القفا مسطحا لاشيء يشينه.. وبعد هذا يدعو الإشبيلي إلى التسوية ويقول فيها (حكم التسوية أن تأخذ اضبارة من الكاغد، وتعدل طرفها في مقدم السفر على خط الاستواء، ثم ترسم على آخر الاضبارة في مقدم السفر القدر الذي تريد أن تقطعه، تفعل ذلك في أول السفر وفي آخره ثم تسويه. فإذا سويت أخذت بالمقدة ما ثني تحت السكين في القطع ثم تجري عليه البركلم وهو الحجر الذي تعدل به التسوية في ذاتها، ثم تحل السفر وتطوي أول ورقة منه وتعدل حرفها المسوى مع الحرف الذي كان لك قانونا في تعد الاضبارة وهو حرف القفا وتكسره على النصف، ثم ترشم القدر الذي تريد أن تقطعه من رأس المسطرة ومن أسفلها) ص: 18.

وبعد هاته العملية يتحدث المؤلف عن الحبك، وذلك أن يعمل الصانع مفتولا بقدر حكم السفر من الضخامة، ويشد الخيط عليه فيعيد الإبرة بالخيط في أول كراسة، وذلك لتثبيتها لأنها طرف، ثم يبدأ في الثانية والثالثة إلى آخر الكراريس، فيعمل الصانع في الأخيرة مثل ما عمله في الأولى لأنها أيضا طرف. وكثيرا ما يقع النقض في السفر ويحمل عليه بالحرير ويسمى العمل الأول التشبيك.. ويتحدث الإشبيلي بعد كل هذا عن التبطين. وأرى أنه يريد به صناعة الدفف كما جاء الأمر عند السفياني فهو يرى أنه يعمل من ثلاث ورقات على قدر السفر تركب على هذا الأخير بعدما

يبس ويشد الكل في الملزم وتترك إلى لحظة الالتصاق. وبعد أن يفك السفر ينظر ما تنفظ منه ويطرقه الصانع حتى يتسوى. وذلك أنه إذا تمت تسوية التبطين في السفر لايزيد عليه شيئا ولاينقص.. ويتحدث هذا العالم بعد هذا عن التبشير، ويذهب إلى أنه يجب أن نبشر أطراف الجلد أولا ثم نبشر وسطه. وتلي مرحلة البشر مرحلة تركيب الجلد، وذلك أنه إذا تمت بشرة الرقعة وتمديدها يوضع السفر عليها وتسوى هاته الرقعة على حسب مقدار الطرة فتنتهي إلى تغطية الكتاب..

وهكذا ينهي الإشبيلي كتابه بالتركيز فقط على هاته المباحث الصناعية البحتة دارئا كل إشارة تاريخية.. والحق أن ملاحقة الكوديكولوجي لهذا الكتاب القيم، ولكتاب السفياني الذي سطرنا خطوطه العريضة آنفا، يجعله بإزاء تقنيات الصنع التي يدعو إليها بوجهة نظره الخاصة.

والغربيون المحدثون الذين تباهوا بالتحديد الدقيق للكوديكولوجيا على أساس أن هذا العلم هو فضاء ملاحظاتي للمكونات المادية في المخطوط، ما كانوا ليدرأوا هذين الكتابين من المجال. واستعملت شخصيا «المجال» عن قصد لتمييز مجال الكتابة عن المخطوطات عن علم المخطوطات (الكوديكولوجيا)... ولقد تعقبت في مقال خاص كتابا في التجليد يصح أن ندرجه في علم المخطوطات للعالم الكوديكولوجي الكبير «ليون جلسان» Léon Gilissen تحت عنوان «التجليد الغربي السابق عن 1400م»، ورغم أن هذا الكتاب تشوبه مسحة تاريخية، فقد كان تبئيرا للرصد المادي لمواد

صناعة التجليد. إذ تحدث «ليون جلسان» عن مواد الخياطة قبل 1400، وتحدث عن ألواح الخشب التي استعملت بوصفها دففا، وتحدث عن أنواع الفتحات الخشبية، الفتحات المستطيلة، الفتحات الدائرية. كما تحدث عن نوع الألواح وطريقة ربط الألواح الخشبية؛ والتمييز بين الألواح الكارولانجية، والألواح الرومانية وهلم جرا...

أما عن تاريخية التجليد فهذا باب آخر ربما يصح أن نتناوله في فضاء آخر ولكن مادمت اعتبر شخصيا أن التاريخ هو بساط نظري لعلم المخطوطات فإن تناوله ضروري لفهم المادة الأولى للتجليد في كل لحظة تاريخية وحضارية على حدة..

وأقول إن مادة التجليد التي استعملت في العصور الوسطى ليست بداهة هي مادة التجليد التي استعملت في العصور القديمة، وقس على ذلك في كل العصور.. بمعنى أن علمية هذا العلم الذي نحن بصدد الكتابة فيه تكمن بالدرجة الأولى في التناول الكلي لمباحث الكوديكولوجيا، مع الوضع في الاعتبار الخصوصية الابستيمولوجية للمنطلقات والأهداف.. وهكذا وفي صميم الطرح التاريخي المتقاطع مع الكوديكولوجيا ألفت الباحثة اعتماد القصيري كتابا بعنوان «فن التجليد عند المسلمين» ونقشت في هذا الكتاب عن ظهور فن التغليف في الحضارة الإنسانية بعامة، فمن اهتمام الرهبان بالتغليف في الأديرة ازدهر هذا الفن في مصر عند الأقباط قبل الفتح الإسلامي. ويعتبر التغليف القبطي الانطلاقة للتغليف في العالم الإسلامي.

وتتحدث اعتماد القصيري بعد ذلك عن التجليد عند المسلمين عبر مجموعة من المراحل الزمنية ومن ذلك فن تجليد الكتاب من ظهور الإسلام حتى نهاية القرن الثالث الهجري، والتغليف في العصر العباسي الأول، والذي بينت فيه أن التغليف قد استمر على ما كان عليه العصر الأموي اللهم إلا بعد التطورات في الصناعة وفي الزخرفة. وبعد زمان من هذا العصر تم استبدال ألواح الخشب بصفائح البردي فيما يخص الكتب الصغيرة الحجم. وتحدثت عن فن التجليد في القرن الرابع والخامس. وتحدثت عن خصائصه. وانتقلت هاته الباحثة إلى الحديث عن فن التجليد في المغرب في الفترة المدروسة وأيضا في العراق وبلدان أخرى. وانتهت إلى الحديث عن أثر فن التجليد الإسلامي في فن التجليد عند الأوربيين مظهرة مدى إعجاب الغربيين بالزخارف النباتية، والأشكال الهندسية، والكتابات العربية التي تزين هاته التحف. كما تحدثت عن أن الغربيين لم يكتفوا فقط بالإعجاب بهاته الزخارف، وإنما عملوا على دراسة قوانين الزخرفة لدى المسلمين. كما عملوا على تطبيق هاته القوانين بروح جديدة في تحف أوربية وقد أعجب الأوربيون خاصة بزخرفة الكتب الدينية...وألف العالم الفرنسي «لويس ماري مشون» Louis-Marie Michon كتابا بعنوان التجليد الفرنسي (La reliure française) وفي هذا الكتاب أيضا نجد معطيات تاريخية هامة متعلقة بالتجليد في الثقافة الغربية، وهكذا يتحدث المؤلف عن تجليد الصياغة والعاج غالبا ما كانت تستعمل للكتب المقدسة. واستمرت الصياغة بالخزف والعاج إلى القرن 12م. أما

التجليد بالجلد فقد عرف في العصور الوسطى، وأخذت الجلود من حيوانات متنوعة من ضمنها الإبل، والخروف، والخنزير. وتكلم هذا الباحث عن مسألة الزخرفة في التجليد في مجلدات القرن 12 م والقرن 13 م كما تحدث عن التجليد المرشوم في القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر...

وبعد الوقوف على هاته الخطوط العريضة من خلال الكتب يمكن القول إن الإشارات إلى البعد التاريخي للتجليد مسألة لم يخطئها علماء المخطوطات التقليديون الذين لم يستطيعوا أن يخلصوا العلم من براثن التاريخ...

وختاما يمكن القول أيضا إن التجليد باعتباره مبحثا كوديكولوجيا، هو بالدرجة الأولى مشروع حفري سكوني غايته هو توضيح المراحل التقنية التي يرضخ لها المخطوط كيما تنتهي صناعته.

ولعل صناعة المخطوط غير مقتصرة على هاته العملية الأخيرة، وإنما هي فضاء متكامل من الأعمال التي تستجيب لبعضها البعض.

إن الشيء الذي نريد أن نؤكده بهذا الخصوص هو أن النتائج التي يتوصل إليها الكوديكولوجي في باب التجليد يجب أن تكون متجاوبة بشكل أو بآخر مع النتائج التي يتوصل إليها في باب تركيب الصفحات، والترتيب، وغير ذلك بمعنى أن بؤرة «الكلية» في المنهج لها دور هام في إكساب علم المخطوطات علميته وإضفاء طابع العلمية على التسفير..

"التسفير عند الغربيين قبل القرن الخامس عشر الميلادي"[1]

لمؤلفه "ليون جلسان"

مبحث التجليد من المباحث الكوديكولوجية الهامة التي أسهمت وتسهم في إجلاء مجموعة من المعطيات المتعلقة بالتأريخ أو رصد البنية الحفرية لمكونات الكتاب المخطوط.. وحينما يتناول الكوديكولوجي هذا المبحث فإنه يستجيب بشكل أو بآخر للفهم الأركيولوجي لعلم المخطوطات.

وللأسف نجد الساحة العربية فارغة من مثل هاته الموضوعات اللهم إلا إذا تقصينا التلميحات السطحية في معرض الحديث عن زمن ومكان محددين.

التجليد إذن لبنة جوهرية في معاينة المخطوط بالأدوات الناشدة الجزئيات والطبقات السفلى... وكم نحن محتاجون إلى معرفة دقائق هذا المكون المادي لوعاء المعرفة في تاريخنا الثقافي.. إن الأمر سيكون ولاشك مجديا لكشف حقائق هامة في تاريخ الحضارة، ولكنه سيكون أجدى في

(1) Léon Gilissen, "La reliure occidentale antérieure à 1400"

منظومة علمية صارمة تلك هي حفريات الكتب المخطوطة... ومن هذا المنطلق كان تعاملنا مع فكر الآخر.. أن نعي الكيفية التي تعامل بها هذا الآخر مع مواضيع من هذا القبيل.. أي أن نتابع ركب الحضارة بتكسير الحدود الإقليمية..

ولعلنا في تعاملنا مع كتاب «ليون جلسان» «التسفير عند الغربيين قبل القرن الخامس عشر الميلادي». إنما سنسائل فيه هاته المعطيات الدقيقة التي تراد في ذاتها لتمثل لبنة هامة في علم المخطوطات. وتستنطق في إطار تاريخي لتسهم في إظهار معلومات قيمة عن حضارة زمن ومكان محددين. وقد كان «ليون جلسان» يفكك من أجل التركيب.. ماهي الوسائل التي استعملت للخياطة؟ ماهي الألواح والدفوف التي شدت بالدرز أو الشبك؟ كيف تركبت هاته الأشياء لتكشف لنا في نهاية المطاف عن نتائج ربما حسمت في شكوك منغصة وربما تعلقت بالتأريخ مثلا...؟

فطرق الخياطة حسب «ليون جلسان» كانت متعددة، فهناك الخياطة بالشبك أو النقش وهي قديمة، وهي من أصل مشرقي ودخلت الغرب ابتداء من القرن التاسع الميلادي، وهناك أنماط أخرى يقدمها «ليون جلسان» في الصفحة 11 من الكتاب وتمثل مختلف أنواع الشبك القديمة.. وهناك أيضا الخياطة بالغرز وفيها أنماط من مثل نمط الغرز بثقبة واحدة، ونمط الغرز بثقبتين، ونمط الغرز بثلاث ثقب؛ وهذا النمط يؤثر سلبا على ظهر الملزمة نظرا لتعدد الثقب.. إذن فحينما يؤول الباحث إلى التنقيش وإنعام النظر في

ظهور الملزمات (الكراسات) فليس الأمر جزافا، وإنما هناك نية في استخلاص ما يعن فيها من آثار متبقية يقول المؤلف: (إذا أمعنا النظر في الآثار التي يمكن أن تلحظ في ظهور الملزمات فلغاية واضحة، وتتجلى في كون هاته البقايا تحمل إلى الباحث عددا لايستهان به من المعلومات)[1].

على أنه يجب أن نفهم أن غياب أي أثر من آثار الخياطة غير تلك الآثار التي صنفناها في أسماء من خلال الحفر في الكتب، لايعني أنه لاتوجد ضروب أخرى. فالمؤلف يذهب إلى إمكانية وجود أنواع أخرى خفيت عن ملاحظتنا العينية، كما يدعو إلى ضرورة التعامل مع الضروب الموجودة بحذر وحيطة كبيرين.

والخياطة لايصنفها «ليون جلسان» فقط بحسب ضروب وكيفيات الدرز أو الشك، وإنما يصنفها أيضا بحسب الطريقة التي تمت بها... وفي هذا الإطار يميز بين الخياطة البسيطة والخياطة المطرزة، والخياطة على شريط العصب المفرد، والخياطة على شريط العصب المطرز...

وبعد أن يأتي المؤلف على هاته الضروب المتعددة للخياطة، يناقش مسألة أخرى لها أهميتها في الحفر في الكتاب المخطوط وهي التساؤل عن المواد التي استعملت خيوطا وشرائط لشد دفتي الكتاب أو لوحيه الخشبيين.. ويتوصل إلى أن عموم الخيوط التي استعملت قبل 1400 م كانت من أصل حيواني (إن المادة التي استعملت لصنع خيوط الخياطة وخيوط المدرجة هى من أصل حيوانى فى كل الحالات الملحوظة في التجليدات السابقة

---

(1) Ibid, page: 12

عن 1400 م والمحفوظة في بريكسيل)[1] ثم يذهب «ليون جلسان» إلى أن المادة النباتية القنب أو الحرير قد حلت محل الجلد انطلاقا من القرن الخامس عشر...

وينتقل المؤلف بعد هاته المكونات الجوهرية إلى الحديث عن مكون آخر لايقل أهمية عما سلف ويتعلق الأمر بدفتي الكتاب.. فما هي المواد التي استعملت منها الدفتان أو الواقيتان الخارجيتان؟ يرى المؤلف أن مجال الألواح الخشبية غير معروف جيدا من طرف الكوديكولوجيين، والسؤال الذي يبدو وجيها هو هل اقتصر التجليد على ألواح الخشب دون أن يتعداه إلى الكارتون، والجلد، وأوراق البردي المتلصقة قبل القرن الخامس عشر.. وللإجابة على هذا السؤال يكتفي المؤلف بتخمين إمكانية ورود هاته المسائل في إطار بدائي قديم، طالما أنه ليس بين أيدينا إلا معطيات مادية قريبة منا في الزمن، وما نستطيع بإزاء التراث الغارق في القدم إلا أن نركب الظن انطلاقا من مجموعة من الحقائق التاريخية الأخرى، كأن نستأنس مثلا بحضارة البردي في مصر وانفتاحها على العالم القديم.. وفيما يخص الخشب نفسه الذي طالما استعمل لتغليف الكتب يذهب المؤلف إلى أن اختياره لم يكن عبثيا، بل اختار الصناع الخشب الأكثر صلابة، وذا الأزراد السميكة والأكثر احتمالا لشدائد البلى. فكان شجر البلوط والمران والدردار هو الأكثر استعمالا لأنه يجيب عن هذا الطلب. وهكذا فضل المجلدون الأقدمون خشب البلوط. أما في القرن الخامس عشر فقد استعمل شجر الزان، وشجر

(1) Ibid, page 23.

المؤلف إلى أنه في العصور الوسيطية القديمة كانت الألواح الخشبية كلها مختفية وراء غطاء، وفي القرن الخامس عشر برز عنصر هام يدبج هاته المعطيات ذلك هو المصيد، ودور هذا الأخير أنه يعزل الكتاب ويحفظ الأماكن المهمة فيه... وقد مثلت التجليدات الغربية القديمة المستعملة لألواح الخشب خاصة مشتركة فيما بينها. وداخل هاته الخاصة هناك صنوف صغرى متعددة دأب «ريجموتر وقيزه» على تصنيفها تعقبيا... إن هاته الصنوف الصغرى هي أصلا مادة المؤرخ الذي يصبو إلى ضبط التميزات والفروق الكائنة بين خلية متشابهة. وذهب «ليون جلسان»، أبعد مما وقفنا عليه حينما نزع إلى الحديث عن المخلفات الحفرية للمخطوط. فتحدث عن مكون الحفر، أو النقرات المتبقية على لوحي التغليف. ويذهب بهذا الخصوص إلى أن طبيعة الفتحات قد تغيرت في شكلها تبعا لمجموعة من التغيرات الأخرى، ذلك أن الفتحات أو النقرات كانت مستطيلة الشكل فأضحت مستديرة. ويجب أن نعرف أن سبب ذلك هو تغيير طبيعة الخيوط، فالخيوط لم تبق تصنع من أصل حيواني، بل أضحت تصنع من النبات (خيوط القنب). وحدث هناك تغير آخر يمس طبيعة الألواح المستعملة للتجليد إذ بدأت تزول الألواح الخشبية انطلاقا من القرن السادس عشر لتحل محلها ألواح الكارتون. وهذا هو الأمر الذي دفع المؤلف إلى أن يرصد مجموعة من التمايزات الكائنة بين الألواح «الكارولانجية» والألواح الرومانية، ويتجلى التمييز أصلا في طريقة ربط الخيوط في الألواح.

ففيما يخص النمط «الكارولانجي»، كانت تستعمل الخيوط من مادة نباتية. وكانت الخيوط المزدوجة للخياطة تتكون من خيط من القنب المنثني من وسطه، والذي يدخل جانب اللوح عن طريقة نقرات مستديرة متوجهة إلى خارج اللوح. أما العصب المزدوج للخياطة فكان يتكون من خيط طويل مفرد من أصل حيواني منطو إلى اثنين وداخل في حرف اللوح عن طريق فتحات مستديرة متوجهة إلى خارج اللوح..

أما فيما يخص النمط الروماني فكان يستعمل العصب المذاب من أصل حيواني متوجه إلى خارج اللوح، وهاته الأعصاب المذابة كانت تدخل في فتحات مستطيلة موجودة في حرف اللوح وموجهة إلى خارجه... وفي نمط القرن الخامس عشر الميلادي تحققت الخياطة على أعصاب مذابة بشكل متنوع وفي صفوف عديدة. و بدأت تتحول في شكل تصاعدي إلى أعصاب مزدوجة في شكل حبل.

إن التجليد الغربي فوق هذا كان مستوفيا لمجموعة من العناصر الضرورية لهاته الصناعة من مثل استعمال الرأسيات، والمدرجات، والأغطية. والرأسية حسب المؤلف هي جزء الجلد الذي يغطي حواشي مظهر الكتاب، والذي ينثني على المدرجة.

والمدرجة هي الضفيرة المصنوعة باليد التي تقوي حواشي الظهر من الرأس والذيل، وتتكون من المدرجات والرأسيات مدمجة مع الأغطية بشكل يجعلنا غير قادرين على تمييز كل واحد منها على حدة.

إن هاته المعطيات القليلة التي حاولنا أن نتلمسها مع المؤلف ليست أوصافا لا طائل من ورائها، وإنما لها أهمية عظيمة في كونها تقفنا على «الطبقات السفلى» الدقيقة التي تشكلت منها كل صغيرة في هذا الشيء المادي الذي هو المخطوط... وذلك بالطبع هو جزء من البعد الأركيولوجي في فهم الكوديكولوجيا.

البردي وصناعة الكتاب الملفوف

لعل الحديث عن هاته المادة، التي استعملت للكتابة والتي هي من أصل نباتي، لايتجاوز كونه حديثا عن وعاء من أوعية متعددة دأب على اعتمادها أجدادنا في أزمان بائدة. وهكذا كان الصينيون مثلا يكتبون على القوقعات، وواقيات السلاحف، وعظام البقريات، وعظام العاج، وعلى المعادن، والأحجار (أحجار اليشب وهي أحجار كريمة)، وعلى الخزف أو الفخار أو الخيزران[1]. وينقل لنا الدكتور يحيى وهيب الجبوري أن الكتابة على العظام بقيت موجودة إلى حين العصر الأموي، بل حتى إلى العصر العباسي (حين تدعو الضرورة إلى الكتابة في العظام أو قد تضيق يد بعض العلماء عن الحصول على ثمن القرطاس فيكتب في العظام)[2]. ويتحدث عن مواد أخرى من مثل المهارق التي هي الصحف البيض من القماش، والقباطي؛ وهي ثياب كتان رقاق كانت تصنع بمصر. والرق والأديم ثم القرطاس الذي هو البردي. وقد عرف العرب البردي منذ العصر الجاهلي، ويمكن أن نذهب إلى أن البردي ذات أصل يوناني وتعني ما يكتب فيه. وفي العربية نعثر على ألفاظ تقابلها من

---

(1) يراجع: Papiers et Moulins - Marie Ange doizy. Pascal Fulacher, page: 20

(2) الخط والكتابة في الحضارة العربية، الدكتور يحيى وهيب الجبوري، ص: 251.

مثل ورقة وصحيفة... وقد استعمل العرب البردي في شكل دفاتر على خلاف ما تنشده هاته المادة من وجوب لفها في شكل لفافات قد تطول العشرة أمتار وأصبحت هذه القراطيس في العصر الأموي تثبت في الدواوين وتحفظ على شكل أوراق ثم جعلت في دفاتر، يقول الثعالبي وكان سبيل ما يكتب (يثبت / في الدواوين أن يكتب (يثبت) في الصحف، فكان خالد أول من جعله في دفاتر)[1]. وظلت بعض المناطق عذراء من استعمال البردي من مثل المغرب، وفي مقابل ذلك عرف هذا البلد استعمال الرق. ولعل البلد الذي عرف استعمال البردي بكثرة إنما هو مصر. بيد أن دخول الورق وانتشاره في مصر قد قضى على القرطاس وصناعته. ويذهب يحيى وهيب الجبوري إلى أن انتهاء صناعة البردي في مصر كان في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

معنى كلمة "بردي" واستعمالاتها

جاء في «معجم الحضارة المصرية» Dictionnaire de la civilisation Egyptienne لمؤلفه «جورج پوسنر» أن للكلمة دلالات متعددة. فتارة تشير إلى ضرب من السعديات ذات القامات الطوال، وتارة تشير إلى مادة للكتابة. والورق لغة أتى أو انحدر من الكلمة الاغريقية Papyros بردى. وهاته

(1) نفسه ص: 269.

الكلمة أي Papyros مشتقة من أصل آخر هو Papouro التي تعني «الملكي» باللغة المصرية. والبردي هو كتاب أو مصنف مليء بالكتابة[1].

ونجد في هذا القاموس إشارة إلى الموقع الجغرافي لهذا النبات؛ في مصر القديمة، وفي دلتاها التي هي الأراضي البردية. والبردي الأولي كان يضرب بجذوره في الأوحال، ويمتد بغصنه طويلا، وكان يصل في طوله إلى مستويات كبيرة (إلى ستة أمتار). فالإنسان كان يبقى كائنا صغيرا وسط هاته الغابات الساحقة.. أما عن استعمال هاته المادة الثمينة، فكان العمال الشداد يقطعون البردي قطعة قطعة في نوع من التعثر تحت ثقل أحجامه، ويحملون ذلك إلى المحترفات، وكانت تستعمل من أغصانه مراكب خفيفة. وأسفل الأغصان كانت مادة لذيذة للمضغ مثل العلك. ومن جذعه كان المصريون يستعملون حبال الأشرعة، والحصير، والسلل. ويؤكد الدكتور عبد اللطيف الصوفي في كتابه «لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات» هاته الأفكار التي تنخلناها من القاموس، إذ ينص هو بدوره على أن البردي كان يوجد بغزارة في مصر وفي وسط المياه الراكدة في دلتا النيل. وهو ينص فقط على أن ارتفاع ساقه كان يصل إلى مترين أو ثلاثة أمتار كما يشير إلى أنماط الاستعمالات التي عهدت للبردي من لدن المصريين من مثل صنع البيوت، والزوارق، وفتل

(1) ينظر: Dictionnaire de la civilisation Egyptienne, Par Georges Posener et collaboration avec serge sauneron et jean Yoyotte. Fernand Hazan.

الألياف، ونسج النعال، فضلا على أن الورق كان يستخرج منه[1].

والمصريون قد صنعوا من ساق هذا النبات مادة للكتابة... وسبيلهم في ذلك أنهم كانوا يقطعون الساق إلى شرائح رقيقة للغاية، وكانوا يصففونها متجاورة فوق سطح مستو مع وضع شرائح أخرى فوقها بشكل متصالب تكون متعامدة مع الأولى. وبعد غمر هذه الشرائح بالماء مدة طويلة، كانت تدق بمطرقة طويلة لتتماسك بفعل المادة اللاصقة الموجودة في هذا النبات أصلا، فتتلاحم، وتلتصق التصاقا وثيقا، ثم تترك لتجف تحت أشعة الشمس، وتسوى أطرافها ثم يجلى سطحها ويصقل حتى يصبح ناعما لامعا براقا بقدر المستطاع لكي تسهل الكتابة عليه.. وهاته الشرائح أيضا كانت تخول صنع صحائف مرنة يصل طول كل واحدة منها إلى 15 أو 17 سنتيمترا. أما عن طريقة صنع اللفافة فقد كانت تشد هاته الصحائف الواحدة إلى الأخرى في قطع طويلة لتكون لنا في النهاية لفافة Rouleau ذات عدة أمتار (ستة إلى سبعة أمتار وفي بعض الأحيان عشرة أمتار). أما عن لونها، فيميل إلى الأصفر أو الأبيض إذا كانت جيدة، وإلى اللون البني، إذا كانت أقل جودة[2]. وكان ثمن البردي مرتفعا، فهو سلعة نادرة كانت تصدر بالجملة إلى بلدان أخرى. ومن هنا فالبردي لم يبق حبيس الأراضي المصرية، وإنما تعداها إلى بلدان أخرى. وكان هو العماد الأساسي الذي قامت عليه الكتابة

---

(1) يراجع: لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات، الدكتور عبد اللطيف صوفي، ص 20.

(2) نفسه ص: 20-21.

في العصور القديمة. واستعماله طال أكثر من سبعمائة سنة حسب ما يذهب إليه الدكتور عبد اللطيف الصوفي. ويذهب هذا المؤلف إلى أن آخر وثيقة مكتوبة على ورقة بردية يعود تاريخها إلى عام 323 هـ 935 م[1]. ويعود سبب اختفاء هاته المادة إلى المنافسة التي تعرضت لها مع الرق وقد احتدمت هاته المنافسة في القرن الرابع الميلادي[2]. وتميز الرق بطريقة الصنع التي لاتستوجب خياطة وصنع لفافة طويلة بقدر ما تنشد تشكيل الملازم أو صنع الكراس الذي هو موضوع الحديث في الكتاب الرقي أو الجلدي...

---

(1) نفسه ص: 26.

(2) يراجع: L'épopée du livre du scribe à l'imprimerie A-G-Hamman, Page: 33.

لمحات عن الكتاب المخطوط

"النموذج مادة الرق"

جاء في التنزيل (والطور وكتاب مسطور في رق منشور)، وقال المبرد هو ما يرقق من الجلود ليكتب عليه[1]. وذهب آخرون إلى أن التسمية إنما تعني جلد برجام وهي المدينة التي ابتدئ فيها دباغة جلود الخرفان والماعز، فهاته المادة أكثر صلابة ومقاومة. وهناك القضيم وهو جلد عجل مازال صغيرا ويمثل منتهى الرقة[2].وفي التراث العربي ترد ثلاثة أسماء، ألا وهي الجلد، والأديم، والقضيم. وكلها أنواع من الجلود. فالرق ما يرقق من الجلد ليكتب فيه، والأديم هو الجلد الأحمر أو المدبوغ، والقضيم هو الجلد الأبيض الذي يكتب فيه. وقد عرف استعمال الأديم في صدر الإسلام. ويمكن القول إن الرقوق بخلاف مواد أخرى من مثل القباطي والمهارق كانت أكثر شيوعا. وكانت هي المادة الأساسية التي يكتب فيها العرب، وقد كتبت بها المصاحف والمؤلفات في العصور الأموية والعباسية قبل أن يشيع استعمال البردي والورق من بعده. ونجد استمرارا لاستعمال الرقوق رغم وجود بعض المواد

---

(1) صبح الأعشى المجلد 2، ص: 483.

(2) يراجع L'épopée du livre A-G Hamman, page 33

الأخرى التي نافسته من مثل الورق وقد آثره العلماء والأدباء زمنا طويلا. وكان هناك ناس يؤثرون استعماله لكونه قويا متينا مقاوما لحدثان الدهر، قابلا للطرس، على خلاف الورق، في حين حذر من استعماله بعض الخلفاء لظاهرة الطلس نفسها، وآثروا الورق. وقد استمر استعمال الورق (في شرق العالم الإسلامي. أما في غربه فقد بقي الرق والقرطاس (البردي) منتشرين في مصر وشمال إفريقيا، على الرغم من وجود الورق، فقد بقيت بلاد المغرب تؤثر استعمال الرقوق مع وجود القرطاس لديها)[1]. ويرد ابن خلدون هذا الاستمرار إلى رغبة العلماء في تشريف مكتوباتهم، فالرق عنوان الشرف والاتقان (... فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والاعصار، فانتسخت وجلدت، وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين... وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم، وكتبت الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرفه وقلة التآليف صدر الملة كما نذكره. فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات وميلا بها إلى الصحة والإتقان)[2]. ويذهب الغربيون، شأنهم في مجموعة من الأمور، إلى نسبة اختراع الرق إلى «أومين II» ملك برغام، الذي أراد أن يتملص من الروتينية المصرية المتجلية في البردي. ويؤكد على أنه ابتداء من

(1) الخط والكتابة في الحضارة العربية، الدكتور يحي وهيب الجبوري، ص: 261.

(2) مقدمة ابن خلدون، ص: 334.

القرن الثالث قبل الميلاد كانت هناك معالجات الجلود بشكل يجعلها أكثر ملاءمة على تقبل الكتابة. وأن «برغام» كانت مركزا هاما لصناعة هاته المادة الجديدة، وسميت باللاتينية «بيرغمنوم» وأسماها الفرنسيون برشمان[1]. ويعزو عبد اللطيف الصوفي هذا الإقبال على مادة الرق من لدن ملك برغام إلى أن مكتبة هذا الأخير ضعفت بسبب اختفاء مادة البردي من أسواقه. فلجأ بلهفة إلى إحياء طريقة في الكتابة على جلود الضأن المدبوغة والعجول. (وهكذا بدأت برغام العمل على استنباط الوسائل الكفيلة بترقيق جلود الحيوانات وشدها، وجعلها صالحة للكتابة بشكل أفضل، وتمكنوا بعد جملة من التجارب من صنع جلود رقيقة مرنة تتحمل الاستعمال الطويل، ويساعد سطحها الناعم على إبراز الكتابة المسجلة فوقه بواسطة أقلام الحبر بشكل واضح وجذاب، إضافة إلى مقاومتها ضغط القلم، فلا يخشى عليها من الثقب أثناء الكتابة كما هو الحال بالنسبة لأوراق البردي..ويمكن صنعها في أي مكان، وفضلا عن ذلك فإن متانة الرقوق ومرونتها، وقوة احتمالها جعلت استخدامها على شكل لفافة Rouleau وعلى شكل كتاب (Codex) أمرا ممكنا)[2].

---

(1) Histoire du livre - Albert LABARRE .

(2) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات، الدكتور عبد اللطيف الصوفي، ص: 31.

الشعر الذي يشكل فروة الحيوان. وينجز المرط عن طريق غطس الجلد في الماء المرط أو مغطس ماء الجير الذي نحصل عليه عن طريق الجير المطفأ والمشعشع. وبعد هاته العملية يتم نزع الشعر بسهولة كبيرة. ثم تأتي مرحلة التعريق أي كشط الجهة السفلى من الطلحيات لإزالة البقايا اللحمية العالقة بها، والتي غالبا ما تكون مشحمة. وتتلو مرحلة التعريق عملية الصقل، ثم تنشيف الجلد بتمطيطه على مطاطات تدعى مطاطات الجلود أو كباسات.. والصقل الذي كانت تخضع له الجلود في العصر الوسيطي كان يجعل من الصعوبة معرفة الجهة العليا من الجهة السفلى وخاصة في نهاية العصر الوسيط أي في القرن الخامس عشر.

ويتحدث «جاك لومير» عن مجموعة من المعايير التي يجب على الكوديكولوجي أن يكون على بينة منها لتمييز الجهة العليا من الجهة السفلى، ومن ذلك مسألة اللون. فعادة ما تكون الجهة السفلى في الرق أكثر وضوحا أو أكثر بياضا من جهة الشعر، وهاته المقابلة تلاحظ جيدا في بعض المخطوطات دون أخرى... ومن ذلك أيضا معيار الليونة في الجلد. وكتب العالم الألماني «برنار بيشوف» ما يلي: «يمكن أن تأخذ الجهة السفلى والجهة العليا نفس اللون الأبيض، إلا أنهما يختلفان مع ذلك بالكيفية التي يتقوسان بها. فالجهة السفلى تشكل قوسا محدبا، وتشكل الجهة العليا التي هي أقل ليونة قوسا مقعرا». ويتحدث «جاك لومير» عن مسائل أخرى إضافية، وتتعلق أساسا باكتشاف مختلف الآثار المتبقية على الأوراق، وهي

آثار لاتزول بالدباغة. ومن ذلك علامات انغراز الشعر، وهاته الانغرازات تتبين بجلاء بحضور نقط سوداء صغيرة أو صهباء على الجهة العليا من الورقة. وهاته الآثار لاتظهر أبدا على الجهة السفلى، أما ما يؤاتي الجهة السفلى، فهو عملية التعريق أي سحب الآثار اللحمية المتبقية على هاته الجهة.

استعمال الرق في العصور الوسطى

يذهب «جاك لومير» إلى أن الرق في القرون الأولى من العصر الوسيط كان يصنع بشكل عام في المحترفات الديرية، وكان يرتبط بمهارة حرفية فائقة طبقا للأساليب الموضحة، ولم يكن الرق قبل القرن الحادي عشر يصنع بطريقة معملية.

ولم تزدهر صناعة الرق إلا في نهاية القرن الثاني عشر حيث إن هاته الفترة تزامنت مع ظهور الجامعات الكبرى، كما أنها عرفت انفتاح صناعة الرق على غير رجال الدين. ومع هذا بقيت هاته المادة مكلفة في العصر الوسيط حيث إن بعض الكتب كانت تنشد أكثر من مائة قطعة جلدية. وكان الناشد لكتاب مخطوط ما يقدم المادة الرقية للناسخ أو يبتاع له الرقوق الكافية لعملية النساخة. فهذا الأمر هو ما يفسر لنا انتشار ظاهرة الطروس أو الطلوس أي إعادة استعمال الصحائف التي سبق ان كتبت. فكانت هاته

الصحائف الرقية تصقل بغاية محو الكتابة الأولى، وعندما تزول الآثار يبدأ الناسخ في كتابتها من جديد. وغالبا ما كانت تبقى الكتابة الأولى ظاهرة في بعض أجزاء الكتاب.

ويمكن القول باختصار إن أهم عامل أسهم في تيسير استعمال الرق في العصور الوسطى سواء عند الغرب أو في الأصقاع العربية إنما هو المنافسة والمضايقة اللتان تعرضت لهما هاته المادة من جراء انتشار استعمال مادة الورق التي يمكن أن نتحدث عنها في باب خاص.

علم المخطوطات والتحقيق العلمي

إن الحديث عن علم المخطوطات والتحقيق العلمي يدعونا إلى الحديث عن مجالات أخرى لايمكن فصلها عن التحقيق العلمي من مثل تاريخ النصوص، ونقد النصوص اللذين ينضويان في إطار أبحاث الفيلولوجيا... ولعلنا في تعقبنا لثنائية علم المخطوطات والتحقيق العلمي إنما نتساءل عن مواطن السجال والحوار الكائنة بين المجالين.. ثم هل يمكن للتحقيق العلمي أن يفيد من أبحاث علم المخطوطات؟ وإذا كانت هناك إفادة مشتركة، فكيف تتم هاته الإفادة؟ وقبل هذا وذاك، ماهي المشروعية الابستيمولوجية التي جعلتنا نتحدث عن ثنائية علم المخطوطات والتحقيق العلمي؟

قبل أن نتطرق لهاته الثنائية التي نعبر من خلالها على أننا نازعون إلى تكسير الجدارات الفاصلة بين المجالات المعرفية.. نرى من الأصوب أن نقدم لمحة عما يراد بالتحقيق العلمي بوصفه بحثا إجرائيا..

إن التحقيق العلمي في معناه المتداول والمألوف إنما يراد به قراءة النص المحقق كما أراده مؤلفه دون زيادة ولانقصان، وإثبات الملحوظات في الهوامش.. وفرق الغربيون بين تحقيق النصوص المنتسخة (المبيضات)، وتحقيق المسودات، وأعطوا لهاته الأخيرة معنى خاصا[1]... وقد عرف

---

(1) ينظر Avant texte, texte, Après texte, Bernard Brun, P. 77.

المسلمون التحقيق قديما بمصطلحات «الضبط» و «المراجعة» و «المقابلة» في علم الحديث، وسنرى فيما يلي كيف أن هناك معطيات متداولة في تاريخ النصوص ونقدها كانت معروفة عند علماء الحديث.

إن الطريقة التقليدية التي اعتمدها العرب في تحقيق النص ومازالت أفواج الباحثين تعتمدها، هي البحث عن النسخ ما استطاع الباحث الى ذلك سبيلا، ومقابلة هاته النسخ مع اعتماد ماسمي توهما «بالنسخة الأم»، وتدوين الاختلافات بين النسخ في الهوامش، ثم الانكباب على التحقيق، مع الابتداء بما تعورف عليه من تحقيق العنوان، والاطمئنان إلى المؤلف الفعلي، وتحقيق المتن... ويجب الإشارة بهذا الصدد إلى أن هؤلاء العلماء الأجلاء المشتغلين على التحقيق متميزون بالقناعة، فهم قانعون بما تيسر لهم من النسخ دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن النسخ في الخزانات الوطنية ناهيك عن الخزانات الأجنبية، وهم قانعون بثقافتهم العصرية الخفيفة المكللة بالمصطلحات الأجنبية الفضفاضة. وهم فوق هذا وذاك قانعون بتقوقعهم في حقل معرفي منفتح بطبيعته ألا وهو التحقيق العلمي، دون أن يشرئبوا بفضولهم إلى حقول معرفية أخرى، قد يكون لها أثر كبير في تشذيب عملية تحقيق النصوص، من مثل علم المخطوطات، وتاريخ النصوص، ونقدها. ولو أنهم انتبهوا إلى اليسير مما تجود به قرائح العلماء في هاته المجالات لأعادوا النظر في مجموعة من المسلمات التي ينطلقون منها بغاية التحقيق.

ولعل واقع التحقيق هذا هو ما حذا بالأستاذ أحمد شوقي بنبين إلى

للنسخة التي تحمل كل معلومات المخطوطة المتجلية في عنوانها، ومؤلفها، ومتنها. ثم هل هي مكتوبة بخطه أو أملاها أو أجازها[1]. وليست حسب مفهومها عند أحمد شوقي بنبين الذي يجعلها مرادفة «للنمط الأعلى» Archétype.

إن أهم شيء يمكن أن نؤكده بعد جمع النسخ المتأني والمضني هو إعادة النظر في مفهوم «المقابلة» كما يفهمه المحققون العرب. فلن نستطيع أن نطمئن إلى نسخة معينة ونعتبرها «نسخة أما» لأن فيها إجازة أو عبارة القراءة أو شيئا من هذا القبيل[2]. والسبب بسيط وبديهي، وهو يكمن في أن نساخا كثيرين يعيدون نفس العبارات الخارج نصية، فيتوهم المحقق أن النسخة أصل لوجود إجازة أو سماع بها، وماهي بذلك. إنما وجد فيها ترديد ببغائي للعبارات.. أو أنه يعتمد نسخة لمعايير مرتبطة بعلم المخطوطات، أو بعلم الخطوط القديمة، وفاته أن التاريخ قد عرف حاذقين في تزوير الورق، وتقليد الخطوط[3]... أو أننا نطمئن لنسخة لأهميتها، أو لعدم وجود التصحيف والنقصان فيها، كما يذهب إلى ذلك عبد الهادي الفضلي[4].

---

(1) تحقيق النصوص ونشرها ص: 29.

(2) لقد تنبه عبد السلام هارون نفسه إلى هاته المشكلة حينما ذهب إلى أن بعض الناسخين الغافلين حسب تعبيره قد ينقل عبارة المؤلف من مثل «وكتب فلان» دون أن يعقب ذلك بأنه نقلها عن النسخة الأصل.

(3) تحدث أحمد شوقي بنبين عن أن ابن البواب قد استطاع أن ينتسخ نسخة من القرآن بخط ابن مقلة مستعملا في ذلك ورقا ومدادا عتيقين. دراسات في علم المخطوطات والبحث البيلوغرافي، ص: 31.

(4) تحقيق التراث، ص: 104.

إظهار رفضه للتحقيق العلمي في الثقافة العربية[1]، منطلقا في ذلك من الفيلولوجيا وعلم المخطوطات، ومقتصرا على مسألتين اعتبرهما جوهريتين في هذا العمل العلمي، ألا وهما مسألة النساخة، ومسألة البحث والتفتيش عن المخطوطات. وانتهى إلى أن العلماء يقتصرون على ما توصلوا إليه من المخطوطات، دون البحث والتقصي وهو مطلب فيلولوجي هام[1]. ونبه إلى أن هناك عوامل سياسية قد تحول دون وجود بعض المخطوطات في دور الكتب.

أما مسألة النساخة، فقد تعقبها هذا ا لعالم في إطار نفسي. وسنرى أن هاته العملية قد عولجت بحذر في إطار نقد النصوص. وانتقض مفهوم «النسخة القديمة» واعتبر أن هذا الزعم لاوجود له في الفيلولوجيا.

وسنقف نحن الآن عند مسألة المقابلة بين النصوص واعتماد أهم النسخ، نسخة قديمة تحمل كل المعلومات المتعلقة بالمخطوط، وصاحبه، وعنوانه. أو نسخة حديثة ولكنها سليمة من الأخطاء لايشينها نقص أو حشو، أو «نسخة أم» حسب مفهومها مثلا عند عبد السلام هارون الذي يجعلها مرادفة

---

(1) يراجع: دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي فصل (علم المخطوطات والتحقيق العلمي).

(1) انتقض تحقيق عبد السلام هارون لكتاب سيبويه الذي اعتمد فيه على أربع نسخ في حين أن باحثة فرنسية هي «إمبيرت جنفييف » (Humbert Geneviève) توصلت إلى سبع وسبعين نسخة. وأقرت هاته الباحثة أخيرا في ندوة علم المخطوطات التي نسقها أحمد شوقي بنبين أنها توصلت إلى 78 نسخة.

Le Kitàb de sibowayhi d'après l'autographe d'un grammairien Andalou du XII s. Geneviève Humbert.

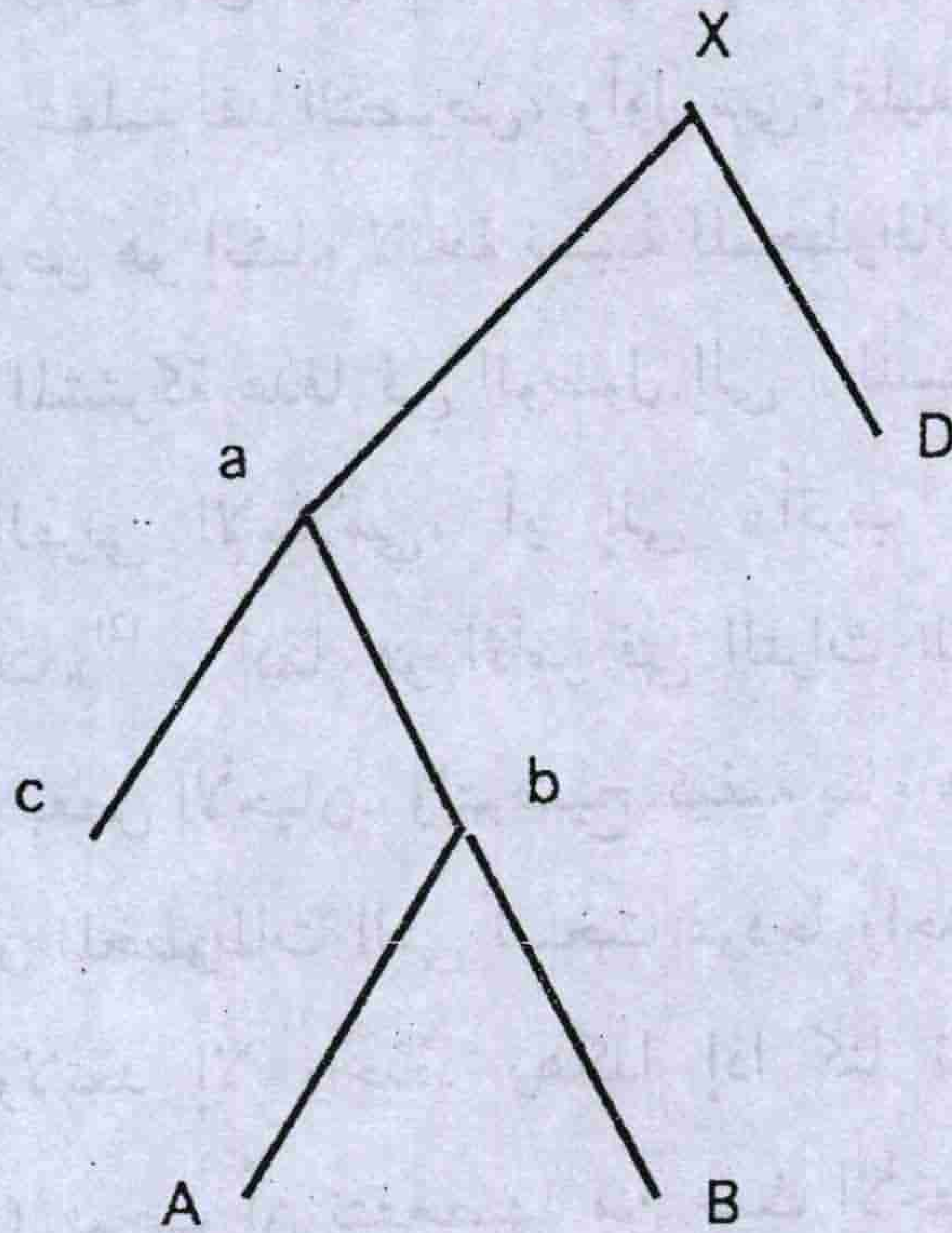
وفات هذا الباحث أن الفيلولوجيين اعتبروا أحسن النسخ هي تلك المليئة بالأخطاء، والناسخ المتمكن هو ذاك الذي يترك الأخطاء دون تغيير[1]. إذن فنحن مدفوعون إلى القيام بما سمي في الدرس الفيلولوجي بتاريخ النصوص وذلك عبر عملية نقد النصوص، وأول شيء تمليه المقابلة المؤسسة على معايير نقد النصوص هو إنشاء لائحة نسبية للمخطوطات عبر ما سمي في فقه اللغة بالأخطاء المشتركة هدفا في الوصول إلى «النسخة الأم» كما يتيح الحال في التراث العربي الإسلامي، أو إلى «أقرب نسخة قديمة مشتركة لمأثور المخطوطات»[2] . كما هو الأمر في التراث اليوناني والإغريقي أو العربي نفسه في بعض الأحيان. ولتوضيح كيفية بناء هاته اللائحة النسبية نؤكد في البداية أن المخطوطات التي نسخت نموذجا واحدا وإن كثرت لاتمثل إلا صوتا واحدا، ولاتعد إلا واحدة. وهكذا إذا كنا نتوفر على أربعة مخطوطات (ABCD) فيجب أن نتفحصها من حيث الأخطاء المنثورة فيها. فإذا وجدنا مثلا نفس الأخطاء بطريقة ثابتة في ABC ولم نجدها في النسخة D يمكن أن نستنتج أن النسخ ABC تشكل عائلة مستقلة، في حين أن D تشكل وحدها عائلة. وإذا أعدنا تفحص النسخ ABC ووجدنا ضربا من الأخطاء في A و B دون النسخة C فيمكن أن نستنتج أن النسخة C تشكل عائلة فرعية

(1) Les manuscrits A. Dain P. 17 et P. 169.

(2) وظفت مثل هاته العبارات في نقد النصوص والفيلولوجيا. ووقفنا عليها عند «ألفونس دان» ويرجع «هامان» نفسه هاته العبارة إلى هذا الفقيه اللغوي.

Sous-famille. فهي إذن فرع مختلف يجب وضعه في الاعتبار.. ويمثل الفيلولوجي الكبير «هامان» لذلك بما يلي:

النسخة الأصلية أو القديمة

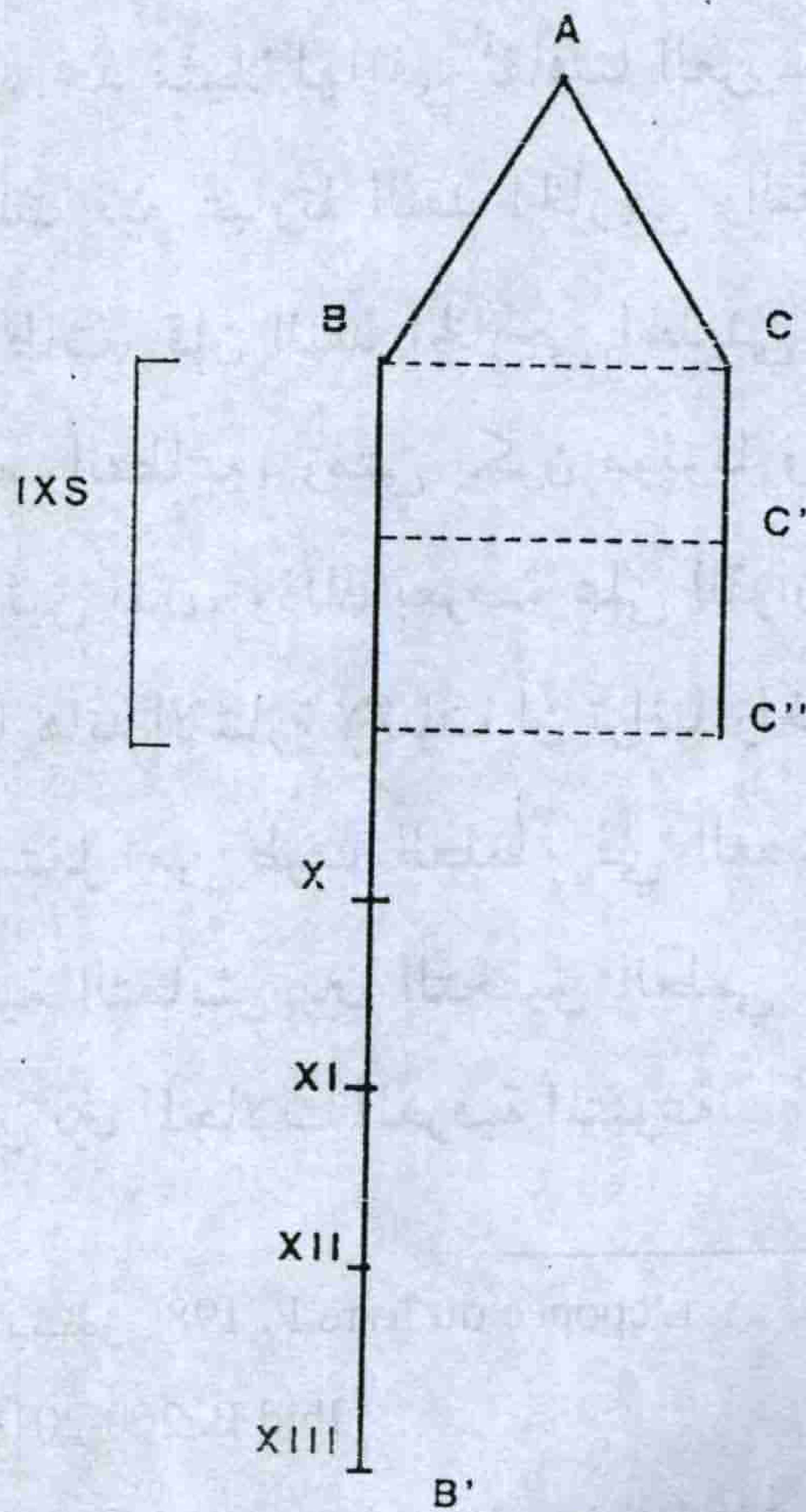


(1)

ويمكن أن نسمي هاته الطريقة في تتبع المخطوطات بغاية تحديد عائلاتها بالنقد الخارجي، وقد ترتبط كلها بالنمط الأعلى، أي النسخة المنطلق Archétype والتي أثبتت في الرسم أعلاه ب (X). وهاته الطريقة تدرأ مجموعة من الهفوات التي قد يسقط فيها الآخذون بالمعايير التقليدية في تحقيق النصوص، كأن يعتمد المحقق مثلا على أقدم نسخة حتى وإن أثبتت

(1) L'épopée du livre du scribe à l'imprimerie, A.G. Hamman p. 197 - 198

فعلا معايير علم المخطوطات وعلم الخطوط القديمة قدمها. إذ إن هناك نسخا حديثة مرتبطة مباشرة بالنمط الأعلى، بيد أن هناك نسخا قديمة غير أنها ارتبطت بالنمط الأعلى أو النسخة الأم عبر وسائط متقاربة في الزمان، وهذا ما أكده ناقد النصوص الكبير P. Collomp بقوله: (قد يكون النص أقدم تاريخا ولكنه أكثر أخطاء من نص آخر أحدث تاريخا وأقل أخطاء. فالنسخة A مكتوبة في القرن 8 وفي بداية القرن التاسع نسخت إلى B و C ولم تنتسخ B إلا في القرن 13 إلى 'B بينما أثناء القرن 9 نسخت C إلى 'C و"C .



(1)

(1) ينظر La critique des textes p: 32

وفي مقابل هاته العملية التي تتوخى ضبط النص انطلاقا من نسخه المتعددة. هناك النقد الداخلي وفيه يهتم ناقد النصوص بخصوصيات الكاتب النحوية، والمعجمية، والأسلوبية، والمذهبية، والوزنية. إذا تعلق الأمر بالشعر[1]. ومن مبادئ هذا النقد أو مسلماته أن الدرس بقدرصعوبته يكون يسيرا في النساخة. والنقد الداخلي إنما نلجأ إليه بكثرة لتأكيد الظن المنهجي الذي يركبه المحقق لحظة تعامله مع مخطوطة وحيدة فريدة بيد أنها غير مقروءة في بعض الأحيان، ومتآكلة، ومقرضة[2]. إن مبادئ نقد النصوص هاته قد نجد مثيلا لها في ثقافتنا العربية المرتبطة بالتراث ، فعلم الحديث قد استعملت فيه عبارتا النقد الخارجي والنقد الداخلي. وعوض الاشتغال على المخطوطات، فإن النقد الخارجي الحديثي اشتغل على سند الحديث من حيث اتصاله وانقطاعه، ومتى يكون موثوقا وغير موثوق، أما النقد الداخلي فقد رام توثيق المتن، وذلك بعرضه على القرآن والمشهور من السنة وماشابه هذا[3]. وقدمنا هاته الإشارة لإثبات أن تراثنا زاخر بطاقة فكرية هائلة كان من الممكن أن تستغل من طرف العلماء في العصر الحديث، ومن جهة ثانية لتأكيد إمكانية التعايش بين التحقيق العلمي وعلم الحديث، أي ترخيص إمكانية التعالق بين المجالات المعرفية المتنوعة.

---

(1) ينظر: L'épopée du livre P. 198

(2) Ibid P. 200-201

(3) ينظر كتاب توثيق السنة في القرن الثاني الهجري أسسه واتجاهاته، فوزي عبد المطلب.

وبعد تقديم التحقيق العلمي كما نحب أن نراه، يتأتى لنا اللحظة أن نتعقب التعالق الكائن بينه وبين علم المخطوطات، الشيء الذي يعتبر زبدة ما نتوخى الوصول إليه. وأرفض أن يكون علم المخطوطات لبنة صغرى في صرح الفيلولوجيا، والسبب يكمن في كون علم المخطوطات نسق علمي قائم بذاته.. ما يضيرني قط أن ننكص عن الحديث عن إسهام العناصر المادية في المخطوطة في إضاءة التاريخ السياسي والسوسيوثقافي.. وماعلمت ثابتة أن علم المخطوطات إنما هو كائن لأنه مفيد في هاته المجالات. إن الإفادة كائنة ولكن ليس على حساب «الاستقلالية» وحينما أقول «الاستقلالية» فإنني أعني بها ابستيمولوجيا الخصوصية النوعية في المنطلقات والأهداف... لقد تحدثت في مقدمة هذا المؤلف عما يراد بعلم المخطوطات في بعده المستقل، فذكرت مجموعة من المفاهيم الأسس من مثل «الحفريات التقنية» و«الحفريات النسقية». وما فعلت ذلك إلا لأبين أن الحديث الجاف عن المعطيات المادية للمخطوط هو هدف في ذاته.. وما ضار الرياضيات أن تكون هدفا في ذاتها وهي المنعزلة عن الواقع المعطى علما أن الفيزياء تعتمد عليها في ضرب أوتاد خيمتها.. وعلى هذا الأساس يجب على محققي النصوص أن يعلموا أنهم سيعودون إلى علم كائن بذاته، وليس إلى معطيات مفككة وأشلاء مبعثرة في الزمان والمكان. والنتيجة المنطقية التي ستترتب عن هذا الشعور هو ضرورة العودة إلى الحقائق المادية للمخطوطة في كليتها.. إننا حينما نسائل فقط نوعية الورق، أو نوعية التسطير، أو حجم الورق حسب

الملاحظة البسيطة لفقيه اللغة، نكون مخلين بإواليات العلم الضرورية.. وهكذا فعالم المخطوطات وانطلاقا من الفحص الكلي للمخطوطة قد يؤكد أن الورق حتى وإن كان قديما، فهو قد انتسخ في مرحلة لاحقة، اعتمادا على نمط الطي، أو التجليد، أوطريقة غرز أو شبك الخيوط، أما الفيلولوجي فقد تخونه ملاحظاته المفككة فيعتبر النص قديما وما هو من القدم في شيء... وفي هذا الإطار توقفت عند بحث «لجان جست وتكام» Jan Just Witkam بعنوان «مبيضات المقريزي» Les autographes d'al-Maqrisi نشره ضمن محاور ندوة علم المخطوطات التي نسقها أحمد شوقي بنبين في المغرب[1]. وفي هذا البحث يحاول هذا العالم أن يظهر ما تفيده الفيلولوجيا من علم المخطوطات بحسب تصوره لهذا المجال المعرفي الأخير، وسنعرض خطوطه العريضة ثم نناقشها في ضوء رؤيتنا الخاصة...

تحدث «وتكام» "Witkam" عن مجموعة مبيضات المقريزي ووقف عند مبيضة خطط المقريزي أي كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والأخبار» الذي هو موسوعة جغرافية وتاريخية وسوسيوثقافية. وسبيله في تأكيد المبيضة ملاحظة التصحيحات، والتغييرات، وموافقة الكاتب في نهاية كل نص، وملاحظة بعض عناصر علم الخطوط القديمة، من مثل ميل الحروف بعض الشيء إلى الوراء.. كما لاحظ الإكثار من الروابط، والإقلال من الترقيم. ويفضي بعد هذا إلى الوقوف على ما اعتبره عناصر مرتبطة بعلم المخطوطات، فيلاحظ أن الأوراق متساوية من فئة 24,5x16 وهي أوراق

(1) ينظر: Le manuscrit Arabe et la codicologie page 89.

مسلكة من مصانع الشرق الأوسط، ومن إنتاج القرن التاسع الهجري الرابع عشر الميلادي. كما لاحظ أن في هاته الأوراق آثار الأسلاك المعدنية، وهي مصبوغة بشكل خفيف، كما أنها كانت مزودة بالخطوط المرسخة بواسطة المسطرة، وهي تفتقد في بعض الأحيان إلى هاته الخطوط. أما عدد الخطوط على الأوراق فهي تتأرجح بين 25 و 27 وكلها مكتوبة. والمخطوط في كليته مستدير الزوايا.

نلاحظ أولا أن الباحث لم يستطع أن يحصر نطاق علم المخطوطات فنصيب وافر من العناصر التي أبقاها في نطاق الفيلولوجيا أدرجناه نحن في إطار علم المخطوطات، ومن ذلك عناصر النساخة من مثل التصحيحات، والتغييرات، وموافقات الكاتب، وآثار المحو، والتشطيب، والإحالات، وكيفية استغلال فضاء الصحيفة، أوالورقة، وغير هاته العناصر من المسائل الخارج -نصية... وثانيا نرى أن تناول هاته العناصر يأتي في مرحلة لاحقة عن تناول الحفريات التقنية للمخطوط وما فعل «وتكام» هنا أكثر من أنه قام بأوصاف سطحية بعيدة عن الحفر، فلو أنه قدم المخطوطة إلى عالم المخطوطات لكشف له هذا الأخير عن نسق متكامل من المعطيات الحفرية الجديرة بالاهتمام، من مثل مكونات مادة الورق، وكيفية طي الطلحيات في دفاتر أو ملازم، والكشف عن ترتيب الصحائف، وفضاء تركيب الصفحات، وطريقة شبك الملازم في مخطوطة موحدة، وتقنيات صناعة التجليد، ومكونات النساخة العديدة.. وأشير بهذا الخصوص إلى أن هاته العناصر المنتمية إلى

علم المخطوطات تقوم في إطار مفهوم الكلية -الذي أكدت عليه- بالضبط الذاتي، وأعني به أن عنصر التجليد مثلا قد يكون دخيلا وليس تجليدا أصيلا، فتنبهنا عناصر علم المخطوطات الأخرى بذلك، وتشعرنا أن التجليد أو طريقة التجليد ليست من صميمها.. إن اللحظة التي بدأ فيها الصناع يستعملون الكارطون في صنع الدفف قد يطابقها الطي بقطع النصف للطلحيات، والشبك بواسطة القنب النباتي، واستغلال درجين في إطار تركيب الصفحات.. ولو أننا لاحظنا حضور هاته العناصر مع التجليد بواسطة دفف، لكان ذلك برهانا على أن التغليف دخيل. وهذا فقط أنموذج لتوضيح التداخل بين عناصر علم المخطوطات، وضرورة التناول للعناصر في كليتها. وهكذا كنا نود أن يقوم «وتكام» بهاته التقصيات كلها ولو أنه فعل ذلك، أو فوض لباحث متخصص فعل ذلك لأكد «مبيضاته» أو لطعن في وجودها. وما يفيده ملاحظة التصحيحات، والتغييرات، وموافقات الكاتب في النهاية، ونوعية الخط.. ونحن نعلم، ونتفق، ويتفق معنا عبد السلام هارون، على أن هناك نساخا ينسخون بطريقة ببغائية، ويرددون ما يوجد في أمهات النسخ.. إذن فهل تكون هاته العناصر وحدها كفيلة بتأكيد «المبيضة»؟ وهل نكتفي بمعطيات قليلة منصبة في الوصف السطحي للورق وتسطيراته، ونقول إننا ارتكزنا على علم المخطوطات؟ إذا كان نعم فنحن نتفق ضمنيا أن علم المخطوطات ما هو إلا معطيات مفككة صالحة لتدعيم التاريخ. وقد كشف «وتكام» عن هذا التصور حينما قال في نهاية بحثه: (حاولت أن أقدم علم

المخطوطات بوصفه علما يعتبر المخطوطات مصدرا للمعلومات النصية أكثر منها مواضيع وحوداث عارضة تخبرنا عن محتوياتها الفيزيائية)[1]. ولهذا الباحث الجليل أن يذهب هذا المذهب، ولكننا نؤاخذه على التناقض فيما أفصح عنه من أن علم المخطوطات علم (حاولت أن أقدم علم المخطوطات بوصفه علما...) ومن جهة أخرى هو فقط أرضية لنقد النصوص (... يعتبر المخطوطات مصدرا للمعلومات النصية) ونحن نسائل هذا الباحث عما يريده بمفهوم «العلم»؟

إننا إذ نخلص في النهاية إلى ضرورة اتقاء مثل هاته النتائج المتناقضة، فإننا نركز على ما يلي:

- الحوار والسجال بين المجالات المعرفية ضروري، والتحقيق العلمي وعلم المخطوطات مجالان متداخلان، ولايمكن أن يكون هناك تحقيق نزيه دون استشارة علم المخطوطات.

- لايمكن أن يكون هناك حوار بناء بين مجالين معرفيين إلا إذا تمكن الباحث من معرفة هذين المجالين معرفة كلية، ومعرفة القشور من مجال معرفي معين تسقط صاحبها في الوهم الخاطيء.

- إفادة محقق النصوص من علم المخطوطات لايعني أن هذا المجال الأخير سيفقد استقلاليته وهويته الداخلية، بقدر مايؤكد هاته الاستقلالية وهاته الهوية.

- الحوار بين المجالات المعرفية لايستقيم دون أساس ابستمولوجي.

---

(1) ينظر: Ibid, page: 97.

- القلقشندي (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى، القاهرة 1414ه.
- هارون عبد السلام محمد، تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة السنة ط: 5 1414 هـ - 1994م.

لائحة المراجع

مراجع بالعربية:

- الإشبيلي، كتاب التيسير في صناعة التسفير، مدريد، 1959م.
- بنبين أحمد شوقي، دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، كلية الآداب الرباط، 1993م.
- الجبوري يحيى وهيب، الخط والكتابة في الحضارة العربية دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1994م.
- رمضان عبد التواب، مناهج تحقيق التراث عند القدامى والمحدثين، مكتبة الخانجي، القاهرة 1986 م.
- السفياني، أبو العباس أحمد بن محمد، صناعة تسفير الكتب وحل الذهب، فاس 1919م.
- الطوبي مصطفى، «مدخل إلى علم المخطوطات» ترجمة ومقدمة في الكوديكولوجيا، رسالة جامعية، الرباط، 1997م.
- المخطوط العربي وعلم المخطوطات، كلية الآداب، الرباط، 1994م.
- المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي، البيضاء، 1919م.
- الفضلي عبد الهادي، تحقيق التراث، مكتبة المعلم، جدة، 1982م.
- القصيري اعتماد، فن التجليد عند المسلمين، بغداد 1979م.

مراجع بالفرنسية:

- "Avant texte, texte, après texte, "CNRS, Paris 1982
- Binebine Ahmed chouqui, Histoire des bibliothèques au Maroc, Fac lettres, Rabat 92.
- Blanchard Alain, les débuts du codex, Brepols turnhout 1989.
- Bozzolo (C) et Ornato (E), pour une histoire du livre manuscrit; trois essais de codicologie quantitative, CNRS Paris 1983.
- Dain (A), Les manuscrits, Paris 1975.
- Derolez (A), Codicologie des manuscrits en écriture humanistique, Brepols-turnhout 1989.
- Gilissen léon, prolégomènes à la codicologie, Editions scientifiques, story scientia S.P.R.L Gand 1977.
- Gilissen léon, la reliure occidentale antérieure à 1400, Brepols turnhout 1989.
- Labarre (Albert), Histoire du livre, P.U.F 1970.
- Lemaire Jacques, Introduction à la codicologie, louvain -la-neuve 1989.
- Le manuscrit arabe et la codicologie, Publications de la fac des lettres, Rabat, 1994.
- Michon Louis-Marie, la reliure française, librairie larousse, Paris, 1951.

فهرسة